المكتبة العربية

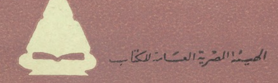
فخري أبو السعود

١٩١٠ - ١٩٤٠

حياته وشعره

مع ملامح من عصره وإشارات إلى آثاره النثرية

تأليف: عبد الحليم القباني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

فخري أبو السعود

١٩١٠ - ١٩٤٠

حياته وشعره

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

- ١٣٧ -

تأليف (٩٢)

أدب (٦٧)

القاهرة

١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

من شعراء الإسكندرية

فخري أبو السعود

١٩١٠ - ١٩٤٠

حياته وشعره

مع ملامح من عصره وإشارات إلى آثاره النثرية

تأليف : عبد العليم القباني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم ينل الشاعر « فخرى أبو السعود » العناية التى يستحقها من الباحثين ، على الرغم من أنه يقف فى الطليعة من شعراء جيله ، بل إنه لم ينل من هذه العناية شيئا على الإطلاق إذا استثنينا بضع مقالات تتسم بطابع التأبين والوفاء ظهرت عقب وفاته سنة ١٩٤٠ ثم لم يذكره بعد ذلك أحد، غير الأستاذ « رجاء النقاش » فى كلمة عابرة ضمن كتابه تماثيل مكسورة .

كذلك لم ينل نصيبه من الشهرة التى هو جدير بها ، والتى نالها الكثيرون ممن هم أقل منه علماً وأدباً وشعراً .

ولست أدرى ما الذى دعا مجتمعه إلى إهماله حيا ، وإلى أن يجحد آثاره ميتاً ، إلى هذا الحد المريب . قد نرى أن وجوده بالإسكندرية كان من أسباب ذلك ، وقد نضيف إلى هذا ، بعده عن التيارات الحزبية التى كانت ترفع من تشاء وتخفض من تشاء فى عصره ، وقد يكون لانطوائيته وبعده عن « الشلل » التى كانت تضم الأدباء فى الإسكندرية — كما كانت فى القاهرة — نصيب من هذا التنكر كبير ، ثم قد يكون لحظه بعد ذلك كله ، نصيب أكبر من هذا الذى سقناه ، فى أسباب إهمال آثار الرجل الفكرية والأدبية . فقد وعدت « وزارة المعارف العمومية» آنذاك ، بطبع كتابيه « محمود سامى البارودى » و « الخلافة السياسية » وجاء هـذا الوعد فى كلمة وزيرها بدار الأوبرا سنة ١٩٣٩ تكريما للمتسابقين من رجالها الذين فازوا فى مسابقتها ، ونال الشاعر عن هذين الكتابين جائزتين رئيسيتين ، غير أن الكتابين لم يريا النور إلى الآن .

كذلك كان الأستاذ « أحمد حسن الزيات » قد وعد بطبع مجموعة المقالات النقدية التى نشرها الشاعر بمجلة الرسالة ، ولكن الظروف التى اعترضت الأستاذ الزيات كانت أقوى من وعده ، فلم يخرج الكتاب إلى عالم المطبوعات حتى هذا التاريخ .

ولم تشهد المكتبة العربية للشاعر « فخرى أبو السعود » غير كتابيه « الثورة العرابية » وقد نشره الشاعر سنة ١٩٣٤ عند تعيينه بالمدرسة العباسية و« تس . سليلة آل دربرفيل » وهو قصة ترجمها عن « توماس هاردى » ونشرتها لجنة التأليف والنشر كأول حلقة فى سلسلتها « عيون الأدب الغربى » .

وعلى الرغم من الكثرة الكاثرة من المقالات والقصائد التى نشرها الشاعر بمجلات الرسالة والثقافة والهلال والمقتطف وغيرها ، وبصحيفة الأهرام ، فإن أحدا لم يهتم بكتابة دراسة وافية عنه ، مع أن أغلب أشعاره وكتاباته كانت من الطراز الأول .

والذى أقدمه اليوم — فى هذا الكتاب المتواضع — هو أول عمل أدبى يتناول حياته وشعره ، وقد لجأت — لكى يحقق هذا العمل هدفه — إلى ما وصلت إليه يدى من مقالاته وأشعاره وإلى القليل الذى كتبه عنه زملاؤه وإلى ما سمعت عنه من معاصريه ، والذين عاشروه بحكم الجوار ، أو بحكم العمل ، وإلى ذاكرتى فى قليل من الأحيان .

وبدأت البحث بأن بينت فى إيجاز ، المبررات التى جعلتنى أعتبره من شعراء الإسكندرية بالوفادة ثم تكلمت عن لقائى الأول والأخير له ، وتناولت بعد ذلك حياته وشعره فى بحث خاص سميته « مع الشاعر فى مأساته » اعتمدت فيه على المصادر السابق ذكرها ، وعلى ما استنتجته من شعره ومقالاته منذ سفره إلى انجلترا ، وعودته منها إلى الإسكندرية ، وإقامته بها حتى أدركته منيته باذلا أقصى ما أملك من جهد ، فى بيان التطورات النفسية التى عاناها الشاعر والتى انتهت بمصرعه . ثم تكلمت

فى فصل ثان عن اتجاهاته الشعرية ، فقسمت شعره إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية ، وهى الشعر الوطنى ، والشعر الوجدانى ، والشعر الوصفى ، ومهدت للحديث عن شعره الوطنى بعرض موجز للحالة السياسية فى مصر على أيامه ، واستشهدت ببضعة نماذج من شعره ، مبينا الظروف السياسية الموحية لكل أنموذج .

والحق إن وطنيته وحبه لبلاده ، ولعروبته ، قد تجلى فى هذا الجانب من شعره إلى الحد الذى يثير الإعجاب ويبعث على التقدير .

كذلك مهدت للحديث ، عن شعره الوجدانى ، بكلمة عن الشعر الذاتى ، وضرورته إلى جانب الشعر الموضوعى ، ولما كان الفصل الأول الذى خصصته عن حياته وشعره قد استوعب الكثير من نماذج شعره الوجدانى فإنى لم أشأ الإطالة فى هذا الفصل ، واعتبرت أن ما سبق أن أوردته ، يكفى فى هذا المجال ، ومن هنا رأيت أن أختصر فى هذا القسم من الفصل ، على الحديث عن المرأة فى شعره وما لها من أثر عليه ، وعلى حياته أيضا .

وأما الشعر الوصفى فقد بدأته بتمهيد يبين رأى الشاعر فى الشعر الوصفى ، مع تعليقات أضفتها إلى أقواله ، ثم استشهدت بنماذج من شعره معلقا عليها بما يساعد على إيضاحها .

وكان الفصل الثالث من هذا البحث عبارة عن مختارات من شعره ، إذ رأيت أن أجمع فى هذا الفصل طائفة من قصائده التى قد يشوهها البتر والتى تمثل — فى نظرى — أكمل ألوان فنه الشعرى ، وإذا كان لاشىء هناك يدل على الشاعر كما يدل عليه شعره ، فقد رأيت فى هذه القصائد — التى اخترتها هنا — أكمل أداة تعريف بالشاعر .

وكان الفصل الرابع والأخير عبارة عن مختارات من أقوال الشاعر النقدية ، ولم أشأ الإطالة فيها ، وإنما اكتفيت ببضعة نماذج قصيرة تكفى لبيان الغرض المطلوب وإلا فإن الكتابة عن فخرى أبوالسعود

كناقد ، ومؤرخ للأدب ، وباحث فى التاريخ والاجتماع ، ومترجم من الطراز الأول ، تحتاج إلى كتاب آخر .

ثم أجملت حياة الشاعر فى سطور قليلة أنهيت بها الكتاب تسهيلا لمن يريد الإلمــام السطحى العاجل بالشاعر وحياته .

وبعد فإن الثلاثين سنة التى عاشها « فخرى أبو السعود » كانت شجرة مباركة أثمرت الكثير . . ولعل من ثمراتها « هذا الكتاب » الذى أقدمه لقراء الأدب العربى بعامة ، والشعر بخاصة ، والذى أرجو أن أكون قد وفقت فيه ، إلى الحد الذى يرضى الأدب ، ويرضى الوفاء أيضا للرجل ، الذى وهب فنه وعلمه وأدبه لأمته . ثم مات فلم ينصفه جيله . . ولا زمنه .

وما توفيقى إلا بالله . . عليه توكلت ، وإليه . . أنيب .

الإسكندرية عبد العليم القبانى

فخرى أبو السّعود والإسكندريّة

إن الصلة التى تربط بين « فخرى أبو السعود » وبين « الإسكندرية » ، وثيقة إلى حد كبير ، فهو — وإن كان — قد أمضى الشطر الأكبر من حياته القصيرة فى القاهرة إلا أن نضوجه الفنى ، نما وأتى ثماره بالإسكندرية .

والذى يتتبع حركات التطور الفنى عند « فخرى أبو السعود » يرى أن طاقته الفنية ، تفتحت الى حد ما فى أثناء إقامته بانجلترا عضوا فى بعثة « وزارة المعارف » التعليمية لدراسة اللغة الإنجليزية ، حيث راح يبعث — من هناك — بقصائده إلى مجلة الرسالة ابتداء من أعداد عامها الأول سنة ١٩٣٣ حتى إذا عاد من البعثة ، وعين فور عودته فى أواخر أكتوبر سنة ١٩٣٤ (١) مدرسا للغة الإنجليزية بالمدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية ، بدأ يفيض على الرسالة بالغزير من إنتاجه ، إلى الحد الذى كاد الناس يتوقعون فيه — أن يقرءوا له قصيدة جديدة أو بحثا أدبيا فى كل عدد من هذه المجلة ، وظل كذلك حتى اختلف مع الأستاذ أحمد حسن الزيات ، فاتخذ من مجلة الثقافة ، وبعض المجلات والصحف الأخرى ، منابر لقصائده وبحوثه الأدبية .

وقد ظل الشاعر فى الإسكندرية ، يعمل فى ميدانها العلمى والأدبى

---

(١) نشر أول قصيدة له بعد عودته الى الوطن بالرسالة الصادرة فى ٢٩ أكتوبر ١٩٣٤ وكان عنوانها لاتباهوا وفى عدد الرسالة الصادر فى ١٧ ديسمبر ١٩٣٤ نشر اعلان عن كتاب الثورة العرابية لفخرى أبو السعود المدرس فى العباسية بالاسكندرية ، فاذا حسبنا المدة التى استغرقها طبع هذا الكتاب يتبين لنا أنه عين فى التاريخ المذكور تقريبا . هذا وقد لجأت الى سجلات مديرية التعليم بالاسكندرية وكذلك سجلات المدرسة فلم تستطع أى منهما تحديد ذلك اليوم .

حتى استوفى آخر نسمة من نسمات حياته ، وأسلم روحه على أرضها ، فى دار من دورها الأنيقة الصغيرة المنتشرة بحى الرمل .

ونحن لانقول إنه نبغ فى الشعر فجأة ، كما يروون عن النابغة القديم مثلا ، إذ أننا أميل إلى الاعتقاد بأن العمل الفنى المتكامل لايصدر طفرة عن فراغ مطلق ، بل لابد له من جذور تنميها عوامل شتى من أهمها الموهبة والممارسة .

وإذن فلفخرى أبو السعود شعر نظمه بالقاهرة ولكنه كان من القلة وعدم النضج بحيث لم يعتد به فخرى نفسه ، فلم يعمل جادا على نشره ، وكذلك لم يشر إليه واحد من أصدقائه القليلين الذين كتبوا عنه كلمات متناثرة فى بعض المجلات عقب وفاته .

ومن هنا ربطنا إنتاجه الأدبى بالإسكندرية وأدخلناه فى زمرة السكندريين بالوفادة .

أما الحديث عنه ، وعن شعره ، فطويل وذو شجون ، وأعتقد أنى أودعت فى الصفحات القليلة التالية ، ما يمكن أن يكون بداية خيط ، لمن يريد أن ينسج قصة هذا الشاعر الذى لم ينصف نفسه ولم ينصفه زمانه ، وإنما عاش منذرا بلا صدى ، وداعية ليس له من مجيب .

الفصل الأول

مع الشاعر في مأساته

- ١ -

حدث هذا الذى أرويه فى منتصف أكتوبر من سنة ١٩٤٠ ، وكنا على موعد مع حفل أقامته إحدى الجمعيات الأدبية بالإسكندرية ، تخليدا لذكرى وفاة المسرحى القصاص الشاعر المرحوم محمد تيمور [١] ففى مغرب ذلك اليوم ، توافدنا على نادى موظفى الحكومة بمحطة الرمل ، حيث أقيم الاحتفال بقاعته الكبرى ، التى غصت بجمهور كبير يمثل مختلف الاتجاهات الفكرية والطبقات الاجتماعية فى ذلك العهد . وليلتها تتابع الخطباء والشعراء على المسرح ، يشيدون بذكرى ذلك العبقرى الشاب الذى سبق جيله ثم لم يمهله الموت فأصبح مجرد ذكرى .

وجاء دور الشاعر الأستاذ «فخرى أبو السعود» مدرس اللغة الإنجليزية بمدرسة الرمل الثانوية ، ليلقى قصيدته التى أعدها لهذه المناسبة .. وكان مطلعها : إن لم تخنى الذاكرة .

حيا الخلود محمدا تيمورا   قد كان روضا للفنون نضيرا

وهو — فيما أرى — مطلع عادى ، لايمكن أن يثير انتباه أحد من السامعين ولم يستطع الشاعر كذلك أن يشد اهتمام المستمعين إليه ، بفخامة الإلقاء أو بالنبرات الصوتية المعبرة ، تلك التى يمكن أن يلمس الناس فيها أحاسيس الشاعر نحو الفقيد الكريم ، فقد كان صوته ساعتها ، آليا ، لاتحس فيه بنبضة حياة .

---

(١) محمد تيمور ١٨٩٢ ـ ١٩٢١ ولد بالقاهرة وسافر وهو فى العشرين الى فرنسا لدراسة القانون وعاد فى بداية الحرب العالمية الأولى وانصرف الى المسرح متأثرا بالمذهب الواقعى فألف عدة مسرحيات التى منها أوبريت العشرة الطيبة وله مجموعة شعرية نشرت بالمجلات ولم تخرج فى ديوان بعد كما نشرت له مجموعة قصصية بعنوان « ماتراه العيون » وهو شقيق الكاتب القصصى المعروف « محمود تيمور » .

كان الشاعر . . يلقى قصيدته فى تلك الليلة ، وكأنما يريد أن يسبق ألفاظها ، إنه لا يكاد يسترد أنفاسه ، بل إن الكلمات توشك أن تتساقط من فمه قبل أن يتم تكوينها . .

وهكذا لم ينقض أكثر من دقيقة واحدة ، حتى كان الشاعر فى واد ، والمستمعون إليه فى واد آخر .

- ٢ -

لم ألتق بالأستاذ فخرى أبو السعود قبل ذلك ، وكذلك لم أستمع إليه وهو يلقى شعرا غير هذه المرة ، برغم أنه وفد إلى الاسكندرية قبل هذه الليلة بأكثر من ستة أعوام ؛ على أنى كنت قد قرأت له مجموعة كبيرة من شعره الذى كان ينشره فى مجلة الرسالة ؛ وقد كان فى أغلبه — مجيدا فى معانيه وصوره — فياضا بالإحساس الصادق وإن كان ينقصه شىء من الإشراق ورخامة الجرس وطلاوة التركيب فهو ينتمى بحسب رأيى إلى مدرسة العقلانيين فى الشعر وقد يؤيد هذا ، رواية زملائه ، من أنه كان يفضل العقاد على شوقى فى الشعر(١) لكن أكثر الأصدقاء من الشعراء كانوا يذكرون اسمه دائما مقرونا بالإجلال والإكبار فهو عندهم شاعر ممتاز ذو ديباجة عربية سليمة . تكاد تصل بأسلوبه إلى طرائف الشعر فى عهده الذهبى أيام العباسيين .

كذلك قالوا إنه مجدد فى أفكاره وأخيلته ، خلاق مبتكر فيهما ، وأن بعض الألوان التجديدية التى يضفيها على شعره لا تعرفها بيئتنا العامة ، وأنه متأثر فيها إلى حد ما بالفترة التى أقامها فى انجلترا ، وقالوا أيضاً إن هذه الألوان ، تشبه إلى حد ما كذلك ، ما للشاعرين عبد الرحمن شكرى(٢) وأحمد زكى أبو شادى من منهج فى التجديد .

---

(١) انظر أحمد فتحى مرسى فى مقاله بالرسالة ٤ نوفمبر سنة ١٩٤٠ .

(٢) كان فخرى أبو السعود مدرسا بالعباسية الثانوية بالاسكندرية فى الوقت الذى كان عبد الرحمن شكرى ناظرا لها ويمكن أن يكون قد تأثر به ، وهناك وجه للمقارنة بين قصائد « فخرى أبو السعود » الموت والجمجمة وغيرها من القصائد المثبتة فى المختارات وبين قصائد شكرى «الموت» ص ٥٤٢ «وعند رؤية جمجمة» ص ٦٥٦ وغيرهما من الديوان الشامل

وكذلك قالوا إنه مكثر فى شعره إكثاراً لايجاريه فيه إلا القليل وإنه مجيد رغم هذه الكثرة فى أغلب ما ينشره على الناس . . وإن صفحات مجلة الرسالة من سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٣٧ ومجلة الثقافة بعد ذلك ، لتحفل بهذه الكثرة من القصائد الفريدة الجيدة .

وقليل من هؤلاء الشعراء من كان ينتقص من فنه ، فيزعم أنه « أى فخرى » يعمد إلى القصائد الإنجليزية ، غير ذات الشهرة ، فيترجمها نظماً فى بيان عربى لاريب فيه ، فلا يشك الناس فى أنه خالقها ، وأنه كان لاينسبها إلى صاحبها إلا إذا كانت من المشهورات مستدلين على ذلك ببعض القصائد التى لا تتفق أجزاء من تركيباتها الفكرية أو صورها الحسية مع بيئتنا الفكرية أو الطبيعية (١) ، ويستندون فى بث هذا الاتهام أيضاً إلى ما هو معروف عن دراسة الشاعر العميقة للأدب الإنجليزى شعره ونثره ، وربما ساعده على ذلك معرفته بأن الغالبية من القراء يجهلون دقائق هذا الأدب .

وهو اتهام واستناد يقوم كل منهما على السفسطة أكثر مما يقوم على المنطق ، وقد نسى هؤلاء أن الرجل عاش خارج بلاده فترة التلقى ، وقد أثرت بطبيعتها — ولا شك — فى تكوينه الفنى ، ومن هنا كان لابد من وضوح أثرها فى بعض الذى قام بنظمه ، من أشعار ، متأثرا بالدراسة وبالطبيعة فى آن ، وأنه ليس ثمة ما يدعو إلى تشويه سمعته الأدبية وقد أثبت — بالدليل القاطع — جدارته فى قصائده العربية الخالصة السمات والظلال .

- ٣ -

وأجمع الأصدقاء من الأدباء ، على أنه أديب مثقف واسع الاطلاع ، ودليلهم على هذا سلسلة من المقالات القيمة نشرها فى مجلة الرسالة ،

---

(١) انظر على سبيل المثال بعض صوره الطبيعية فى قصيدة الشعر وقد نظمها بالاسكندرية ضمن المختارات وقصيدة الغروب على الخليج ، بالثقافة ٢٦ سبتمبر ١٩٣٩ وقصيدة الجبال بالثقافة ٢١ نوفمبر ١٩٣٩ .

فاحتلت مكانها على صفحات عديدة ، من أغلب أعداد النصف الثانى من سنة ١٩٣٦ والنصف الأول من سنة ١٩٣٧ تقريباً ، وتقوم هذه المقالات على المقارنات الجادة بين الأدبين الإنجليزى والعربى ، تقصى « فخرى أبو السعود » فيها كل وجوه المقارنة تقريباً من حيث الشعر والأدب وفنونهما والبيئة وتركيبها والسلوك الدينى والاجتماعى إلى غير ذلك من نواحى المقارنة ، وأثر كل ذلك ، فى الإنتاج الفنى والأدبى عند الفنانين والأدباء فى كلا الشعبين .

هذا إلى مقالات عديدة فى مجلة الثقافة ، تناول فيها بعض شخصيات الأدب الانجليزى بالدراسة والتحليل ، وكذلك مقالات فى مجلتى الهلال والمقتطف ، تدور حول عديد من المشكلات الأدبية والاجتماعية وتتناول النواحى التاريخية فى بعض الأحيان .

ومن أدلتهم كذلك أنه ألف كتاباً جيداً عن الثورة العرابية ، التى كان يؤمن بأبطالها إيماناً لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد نزع عنها — فى هذا الكتاب — سدولا من الظلمات التى حاول المستعمرون وأذنابهم إحاطتها بها ، حتى تحجب حسناتها عن أعين المنصفين والباحثين عن الحقيقة .

كما أنه فاز بجائزتين رئيسيتين من وزارة المعارف لقاء تأليفه الكتابين أحدهما عن الخلافة والسياسة ، والثانى دراسة عن محمود سامى البارودى الذى قيل إن الشاعر يحفظ ديوانه ومختاراته[1] .

ومن أدلتهم كذلك ؛ على تمكنه من امتلاك ناصيتى لغتى الإنجليز والعرب ، تعريبه الدقيق لرواية (تس — سليلة دريرفيل) لتوماس هاردى ، وقد نشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر فى أول حلقة من سلسلتها « روائع الفكر الغربى » ومن المعروف ، أن أعضاء هذه

---

(١) مختارات البارودى كتاب فى أربعة مجلدات جمع فيه البارودى طائفة من أجود الشعر فى العصر العباسى .

اللجنة ، كانوا من أئمة رجال الأدب فى مصر ، وأنها كانت لا تعنى إلا بالجاد من المؤلفات والمترجمات .

- ٤ -

وإذن فقد كان الرجل فى ذهنى ، قبل أن أحضر هذا الحفل ، عملاقاً من عمالقة الشعر والأدب ، على الرغم من أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره إلا بأشهر معدودات ، وعلى أساس من هذه الصورة التى كونتها فى ذاكرتى ، أعددت نفسى وهيأت وجدانى ، للاستماع إليه ، ولم أكن أتوقع أبداً ، أن أشهد فى ليلتى هذه ما شهدت ، لقد بدأ الرجل على خشبة المسرح مكلوم النفس ، مهزوم الروح لا يحمل صوته تعبيرا ما ، كانت عيناه زائغتين ، لا تستقران على هدف بعينه ، كذلك كان الذهول يسيطر على أعصابه ، فتبدو إشاراته أمامنا بلهاء ساذجة .

ترى أى مشاعر تلك التى ثارت فى أعماقه ، ثم استبدت به استبداداً ملك عليه تصرفاته ، وما لبثت حتّى امتصت حرية سكناته وحركاته ..

وقبل أن أجد الإجابة على هذا السؤال ، كان الشاعر قد انتهى من إلقاء قصيدته ، ولم يشعر الجمهور بإنتهائه منها إلا بعد بضع خطوات ، خطاها الشاعر فى طريقه إلى النزول من على خشبة المسرح وكان الشاعر يسرع فى مشيته ، كأنما ألقى بعبء كان يثقل كتفيه ، ولكن جبهته اصطدمت بالباب الجانبى للمسرح .

واحتبست الضحكات فى بعض أفواه الجالسين ، فالحفل حفل ذكرى لفقيد كريم ؛ لا يجوز أن يسوده غير الرصانة والجلال ، وإن كان قد مضى على وفاة هذا الفقيد — يومئذ — ما يقرب من عشرين عاما .

- ٥ -

ومرت بعد ذلك أيام قليلة لا تزيد على العشرة ، ثم فاجأتنا الصحف والمجلات وهى تحمل نبأ انتحار الشاعر .

أجل فقد انتحر « فخرى أبوالسعود » بأن أطلق رصاصة من مسدسه على رأسه وهو مستلق فى استرخاء على كرسى طويل ، بحديقة داره الصغيرة برمل الاسكندرية ولم يجد الذين استقدمهم صوت الرصاصة إلى حيث جثته غير ورقة صغيرة ملقاة أمامه ، ومكتوب عليها بيت زهير بن أبي سلمى بعد تحويره إلى :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش (ثلاثين) حولا لاأبا لك يسأم[1]

إذن فقد بلغ الكتاب أجله ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع كما يقولون ، وإذن فإن الصورة الأخيرة التى رأيتها للرجل ، والتى وعتها ذاكرتى إلى الآن ، كانت صورة الرجل الذى كان قد مات قبل أن يموت . .

لقد كان الرجل ليلتها على المسرح دمية تحركها أيد خفية . . كان جسدا آدميا له صوت وصدى ، مجرد صوت وصدى ، أما روحه وعقله ومشاعره ، أما هذه جميعا ، فقد كانت هناك بعيدا .. بعيدا جدا .. فى عالم جد مجهول . .

– ٦ –

وتناثرت الأقوال تحاول أن تكتشف ما يحيط بمصرع الشاعر من أسرار ، وأن تنتزع بعض أستار الغموض المسدلة على جوانبه ، وكان منها : أن طفله الوحيد الذى لم يتجاوز السادسة بعـــد ، والذى صحب

---

(١) نشرت مجلة الرسالة بعددها رقم ٣٨٢ الصادر فى ٢٨ أكتوبر ١٩٤٠ صفحة ١٩٣٩ تفاصيل هذا الحادث بما لا يخرج فى مضـمونه عن مارويناه وجاءت بعض هـذه التفاصيل فى مقال للدكتور زكى نجيب محمود نشره بمجلة الثقافة صفحة ١٠ من العدد ٩٦ الصادر فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤٠ وكذلك أورد بعضها الأستاد محمد عبد الغنى حسن فى كتابه أعلام من الشرق والغرب ص ١٣٤ فى حديثه عن فخرى أبو السعود وكان هذا الحديث مقالا نشره الأستاذ فى مجلة الثقافة العدد ٩٨ الصادر فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٤٠ على أنه ذكر فى مقاله أنه توفى فى نوفمبر والواقع انه توفى فى صبيحة ٢١ من أكتوبر (راجع نعى الأسرة فى الأهرام الصادر ٢٢ اكتوبر ١٩٤٠ ونثبت هنا أن أسرته ذكرت فى النعى أنه أصيب برصاصة خاطئة من مسدسه وهو يريد اصلاحه محاولة منها الى ابعاد تهمة الانتحار عنه لكن الوقائع الملموسة تثبت انتحاره كما نرى .

أمــه الإنجليزية فى رحلة إلى انجلترا ، حالت بينه وبين أبيه الحرب العالمية الثانية ، تلك التى تفجرت حممها فى أواخر عام ١٩٣٩ ..

ثم كان ما هو أقسى من ذلك وأنكى ، إذ جمعت انجلترا فريقا من أطفالها وبعثت بهم على سفائنها إلى « كندا » لتبتعد بهم عن شرور الحرب وويلاتها فى الجزيرة المستعرة ولكن الغواصات الألمانية ، راحت تطارد هذه السفن ، حتى أغرقت بعضها ، وابتلع المحيط إحـــداها ، بمـــا تحمل من فلذات أكباد ، كان من بينهـــا طفل الشاعر .

وكذلك انقطعت أخبار الزوجة . . فلم يعد زوجها يسمع عنها شيئاً ، برغم رسائله المتكررة إليها وبرغم استعانته بكل الوسائل الممكنة (١) .

وهكذا أصبح « فخرى أبو السعود » وحيدا فى داره ، مشرد اللب ، منهوب الوجدان تلاحقه الأشباح ، وتضطرب به الأوهام ومن ثم استقر رأيه على أن يختم رحلة الحياة الدنيا وكان أن أطلق فى صبيحة يوم ٢١ من أكتوبر ١٩٤٠ هذه الرصاصة على رأسه فمات .

- ٧ -

كانت هذه الأقاويل ، مما جرى على ألسنة الناس أيامئذ ، ومما تناقلته الصحف والمجلات وهى تروى أنباء ذلك الحادث الأليم . وهو حادث فاجع كما ترى يمس القلوب فيحرق شغافها ؛ ويستمع إليه العقل فيشفق من قسوته ، ويحاول أن ينـــكر منـــه بعض التفاصيل .

فهل كانت هاتان الفاجعتان سر مأساته ؟ أم كانتا القشة التى قصمت ظهر البعير كما يقولون ؟

---

(١) نقلت هذه الأقاويل كل المراجع التى سبق الاشارة اليها فى التعليق على الهامش السابق .

إن أمامنا شعر الرجل ، ويمكننا ، أن نجد فيه ، بلا عناء كثير ، صورا من أحاسيسه ، وما كان يشغل فكره ، من مشكلات أعجزه أن يجد لها حلا . . فإن الرجل – فيما نرى – كان واضحا ، كأنصع ما يكون الوضوح ، وكان خلقه يأبى الرياء الاجتماعى ؛ ولا يميل إلى النفاق ، فى زمن كان للرياء والنفاق فيه سوق كبير ، وتجارة رابحة ، استغلها الكثيرون ، والذى نصل إليه من قراءتنا لشعره ، ونستخلصه من أقوال أصدقائه القليلين فيه ، أنه كان يأخذ نفسه بالحد الصارم ؛ ويبتعد بها عن سفاسف الأمور وينقدها أمر النقد وأعنفه وهو يقول فى ذلك : –

انى وقد صنت نفسى أن يؤدبها سواى يلقى إليها الوعظ والنذرا
أمسى عليها رقيبا ساهرا يقظا عمرى وأضحى حسيبا مغلظا عسرا(١)

كما دار حول هذا المعنى فى عديد من قصـــائده وعلى سبيل المثـــال نستشهـــد بنموذج آخر من قصيـــدته « رقيب » (٢) يقول فيه : –

أنا لى رقيب يافظ لا يغفل يحصى وينقد ما أقول وأفعل
هو بالنـــكير على عمرى مولع وبطول إيلام الفؤاد موكل
يحصى الذنوب على غير مبرئ ويتابع الأخطاء لا يتمهل
إن أكب فى غرض صليت بعذله دهرا ؛ ولا عذر لديه يقبل
نفسى على نفسى رقيب يافـــظ يحصى على نفسى لا يغفل

وفى القصة التالية التى يرى فيها الدكتور « زكى نجيب محمود » دليلا واضحا على شخصية « فخرى أبو السعود » وهو فى مطالع شبابه ، ويرى أنه فى هذه الصورة كان متماسك التكوين الفكرى ؛

---

(١) من قصيدة نجح واخفاق العدد ١٥٧ من الرسالة الصادرة فى ٦ يوليو ١٩٣٦ ص ١١٠٨ .

(٢) الثقافة ١٨ أغسطس ٣٩ ص ٤٥ .

لا يتراجع عما اقتنع به من أنه الأصوب ؛ حتى ولو اضطره الأمر أن يقف وحده ؛ وأن يتحدى كل المجموعة التى تحيط به ؛ وهى مخالفة إياه فى وجهة نظره ؛ ويقول الدكتور « زكى نجيب محمود » فى مقاله هذا وقد نشره بالثقافة عقب وفاة الشاعر مباشرة :

« منذ أربعة عشر عاما كنا نطلب العلم فى مدرسة المعلمين العليا وكنت أسبقه فى الدراسة بعام ؛ وقرر الأساتذة فى غضون السنة ؛ أن يختبروا الطلاب فيما علموهم ؛ وأبى الطلاب إلا أن يترك حبلهم على الغارب ؛ حتى نهاية العام ؛ وأجمع على ذلك ما يقرب من نصف ألف من الطلاب ؛ إلا واحدا استوحى صوت العقل ؛ وربأ بنفسه أن ينساق مع الجماعة انسياق الشاة فى القطيع ؛ وجلس وحده فى بهو الامتحان يجيب ؛ ووقف مئات من الطلاب فى الفناء ؛ كأنهم الذئاب ؛ يرقبون من الأبواب والنوافذ ؛ هذ المارق العاصى ؛ وإن هى إلا ساعة وبعض ساعة ؛ حتى أقبل ذلك الواحد ؛ إلى حيث القطيع الذى التف به ؛ يرجمه بألفاظ غلاظ ويشوبه بألسنة حداد ؛ وهو يدور ببصره فيهم لاينطق ولا يجيب ؛ وأشهد أنى هتفت فى نفسى حين رأيت هذه الإرادة العاقلة ؛ ثابتة كأنها الطود الراسخ والله إنه لرجل والرجال فينا قليل . . ولم يكن عجبا أن أقرأ بعد ذلك بأعوام لهذه النفس الجادة الحازمة صرخة توجه إلى بنى مصر فى قصيدته : (إلام تغيب الشمس عنا وتطلع) (١) . . ذاكم هو المرحوم « فخرى أبو السعود » كما أبصرته أول مرة ، ولم يكن حبل الصداقة قد ألف بين قلبينا (٢) .

ويقول الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فى كتابه « أعلام من الشرق والغرب » إنه كان زميلا للأستاذ « فخرى أبو السعود » فى انجلترا إذ كانا معا عضوين فى بعثة واحدة لوزارة المعارف وإنه رأى

---

(١) القصيدة ضمن المختارات .

(٢) العدد ٩٦ من الثقافة الصادرة فى ٢٩ أكتوبر ١٩٤٠

أن أخلاق « فخرى » كانت من « ذلك النوع الصلب الذى لا ينكسر على زمن » وإنه رأى فيه « عزوفا عن الفضول من القول »(١)

- ٨ -

وكما نرى فى هذه الروايات أن الرجل كان جادا فى حياته ، لا يعرف الالتواء ؛ قليل الفضول ؛ لا يعنى إلا بالنافع من الأمور ، ورجل هذه صفاته ، قد يبعد بنا عن مظنة وجود جذور مأساوية فى حياته ؛ يمكن أن تتكاثف ؛ وأن تتغلب عليه ؛ ومن ثم تدفعه إلى الانتحار ؛ وقد تبعد بنا بعض الصور التالية كذلك عن هذه المظنة ؛ ولكنى أعتقد أننا بعد أن نستعرض معا هذه الصور سنهتدى إلى هذه الجذور ؛ أو على الأقل سنقترب منها .

يقول الدكتور « زكى نجيب محفوظ » وهو يكشف لنا عن جانب من حياة « فخرى أبو السعود » اليومية ... إنه كان يصحو فى الصباح الباكر ؛ فيعدو ساعة أو ساعتين فى شارع الكورنيش ؛ ويعود إلى داره فيتناول طعام إفطاره ؛ ثم يقصد إلى المدرسة ؛ يباشر واجبه فى إخلاص محمود فإذا خلت له ساعة من ساعات الدرس ، أسرع إلى ملعب التنس ؛ يملأ فراغه لعبا ؛ ثم لا يكاد يفرغ من عمله ؛ حتى تراه يعدو عدوا إلى البحر يسبح بين أمواجه ؛ فإن أقبل المساء ، آوى الى داره ؛ وأخذ يطلع حتى ساعة متأخرة من الليل ؛ وكانت زوجته الإنجليزية ؛ تشاركه اللعب والسباحة والقراءة ؛ فقد كانا زوجين ائتلفا فى نغم جميل ؛ يعجبها مايعجبه ؛ وتميل إلى مايميل إليه ؛ وبلغا من هذا الاتساق العجيب حدا بعيــدا ؛ حتى حرما على نفسيهما معا منذ أعوام ؛ أكل اللحم بكافة صنوفه والاكتفاء بأكل الخضر ...(٢)

- ٩ -

والصورة التى عرضها علينا الدكتور « زكى نجيب محمود » متوالية

(١) ص ١٣٥ والكتاب من نشر دار الفكر العربى سنة ١٩٥٠ .

(٢) مقال الدكتور زكى نجيب محمود السالف الذكر .

الحركات حقا ؛ ليس فيها فراغ فعلا ؛ ولكننا نرى أنها كلها لجانب واحد ؛ إذا اعتبرنا زوجه مكملة له ؛ أى أنه ليس للآخرين فيها من أبناء هذا المجتمع الطويل العريض نصيب ، فلا لقاءات تشغل من اهتمامه شيئاً ، ولاصداقات تمتص ما قد يشعر به من مضض فى هذه الحياة ، بل انزواء وراء ظلال متحركة وقد يدل هذا على انطوائية أصيلة عند فخرى ، انطوائية صادرة عن قلة ثقته بنفسه ، أوقلة ثقته بالآخرين ، ومن هنا بعدت مشاعره عن مشاعر الجماهير العــامة ، فلم يشاركهم مرحهم ، ولم يبادلهم وجهات نظرهم المختلفة إلا فى القليل النادر ، إلا فيما تضطره ظروف حياته الوظيفية أو المعيشية إليه .

يقول الأستاذ « أحمد فتحى مرسى » فى مقال له نشره بمجلة الرسالة :

إن « فخرى » رحمه الله كان يؤثر السير على الجلوس ، وكان شديد النفور من المجتمعات ، ولا أذكر أنى رأيته فى مقهى أومنتدى ، ولعل ذلك هو السبب فى سعة اطلاعه ، فقد كان يقسم وقته بين التريض والقراءة والكتابة ، والظاهر أن ذلك يرجع إلى طبيعته الهادئة ، فقد كان يكره الضجة ويتجنب الناس (١) بل يؤكد الأستاذ « أحمد فتحى مرسى » جانب الانطوائية هذا فيؤكد أنه امتد أيضا بالوراثة إلى طفله ، ثم يروى لنا القصة التالية فيقول :

« وحتى طفله ؛ يبدو لى أنه ورث عنه هذه الميزة . . فكان ينفر من الغريب ويبتعد عن الناس ؛ أذكر أنه تركه معى مرة وذهب لبعض شأنه فجعل الطفل يصرخ ويبكى ، ويتملص منى ليجرى ، وعبثا حاولت تهدئته ولكنه لم يهدأ حتى عاد والده فسار إلى جانبه مبتعدا عنى ».
ويعود الأستاذ أحمد فتحى فيتطرق إلى قلة الثقة التى كانت عند فخرى فيقول فى هذا المقال أيضا : إن فخرى كان كثير الشك فى الفوز بجائزة وزارة المعارف ولكنه طمأنه حتى اشترك ومن ثم فاز بجائزتين .

(١) مقال الأستاذ أحمد فتحى مرسى بالرسالة العدد ٣٨٣ الصادر فى ٤ نوفمبر ١٩٤٠ .

وإلى ظاهرة الانطوائية هذه يشير الأستاذ « محمد عبد الغنى حسن » ، فى كتابه السابق الإشارة إليه إلى أنه فى أثناء زمالته لفخرى بانجلترا «رأى فيه عزوفا عن الناس » ويقول فى موضع آخر من مقاله هذا « إن فخرى أبو السعود كان على تزمته ووجومه أحيانا يتهالل للنكتة إذا سمعها فإذا أصابت منه موضعا ؛ أصبح لايكاد يمسك نفسه من الضحك(١) ، ولعل هذه العبوسة التى كانت كامنة فيه كانت تنفس عن نفسها أحيانا ببعض الشعر الفكاهى الذى كان ينظمه » ، ونضيف إلى هذا أن إغراقه فى الضحك، إذا صادفت النكتة مكانها عنده ، إنما كان تنفيسا لما كان يشعر به من كبت شديد ، ونزيد على ذلك أن « فخرى أبو السعود » نفسه يضع أيدينا على انطوائيته هذه بلا قصد عندما يقول فى مقدمة إحدى مقالاته النقدية « . . إن الطبيعة هى إلف الشاعر الحميم . . إلى ظلالها يسكن . . وعندها ينفض أوشاب العيش . . ويستريح فكره الذى أضناه التعب ، ونفسه التى أضجرتها معاشرة الناس . . » (٢) .

- ١٠ -

نحن إذن أمام رجل تتنازعه عوامل نفسية متضاربة ، فهو يميل فى أعماقه إلى الحياة المرحة التى يحياها أصحاب النفوس السوية ، ولكنه انساق وقد يكون هذا بتأثير عائلى — إلى حياة جادة منفصلة عن مشاركة الآخرين ، ويمكننا على ضوء من هذه النظرة أن نفسر موقفه يوم أن أدى الامتحان دون رفاقه جميعا ، ومن هنا نرى أنه يستر نوازعه — التى تود أن تنطلق إلى رحاب أوسع — برداء الجد الذى يرتديه والذى يعانى من أجله ما يعانى ، من صراع دائم بينه وبين نفسه ، صراع لا يعرف الهوادة ولا اللين ، بل حتى الحل الوسط فيما أظن . .

لقد اختلف التياران ، نفسه ورغباتها المكبوتة من جهة ، وما أخذ به

---

(١) مقال الأستاذ محمد عبد الغنى حسن بالثقافة العدد ٩٨ الصادر فى ١٢ نوفمبر ١٩٤٠ وفى كتابه أعلام من الشرق والغرب .

(٢) ص ١٦٩٠ من عدد الرسالة رقم ١٧٢ الصادر فى ١٩ أكتوبر ١٩٣٦ .

نفسه من جد وبعد عن مشاركة الناس فى دنياهم من جهة أخرى ، وعلى الرغم من أنهما يصدران من نبع واحد يتمثل فى حياته ، إلا أنهما ظلا فى نزاع مستمر ، ومعنى ذلك أن الموت ، بالنسبة إليه ، هو الغاية المثلى ، التى يمكن أن تقضى على طرفى النزاع قضاء يستريحان بعده إلى الأبد ، وليس هذا برأيى استخلصته ، وإنما هو رأى « فخرى أبو السعود » نفسه أفضى به فى ختامه لقصيدته « السجينة » التى منها هذه الأبيات فى مخاطبة نفسه وفيها كذلك يبدو جانب من هذا الصراع :

تجنين تهياما ووجدا ولهفة ... وأظهر أنى الزاهد المتعفف
كأنك فى الجنبين منى سجينة ... تعذب فى ظلماتها وتحيف
وتكبح عما تشتهيه وتبتغى ... وتقمع أشواق لها وتشوف
ظلمتك لم أظلم سواك من الورى ... وما من خلالى قسوة وتعجرف
نعيش كأنا اثنان لم يتعارفا ... وما لهما فى الدهر شمل يؤلف
ظلمتك خدنا صاحبا وظلمتنى ... فعل فراقا آتيا هو أنصف(١)

بل يكاد ينتزع هذه الأغلفة ، التى توشك أن تخنقه حين يصرح ، فى تنهيدة حزينة ، أحسها تلمس الجراح من أفئدتنا جميعا فتثيرها ، برغم العقلانية التى تسرى فيها ، ذلك حيث يقول :

لكل شجون فى الحياة كثيرة ... ولكن يوارى عن سواه شجونه
وكل فتى يبكى لبلواه غابطا ... فتى مثله باكى الفؤاد حزينه
ولم يدر إنسان بآلام غيره ... فهم — مثلما يخفى الأسى — يكتمونه
وكل يناجى نفسه فى شقائه ... بأن جميع الناس تسعد دونه(٢)

- ١١ -

وإذن لم تكن الحياة المنظمة ، والعامرة بالحيوية والمحبة ، تلك التى

---

(١) راجع القصيدة ضمن المختارات .

(٢) أبيات استشهد بها الدكتور زكى نجيب محمود فى مقاله المشار اليه .

أوضحناها ، فى حديثنا عن حياته اليومية والتى أوشك الدكتور « زكى نجيب محمود » أن يحمد الشاعر عليها ، لم تكن بمرضية للشاعر ولا بمحققة لأمانيه ، وإنما كانت ستارا جميلا براقا ، تختبئ آلامه وراء نضرتها وتثور رغباته من خلال ورودها ، فى شكل أبيات جامحة ، يثور فيها على رتابتها وآليتها ثم هو لا يكتفى بأن يصرخ فيقول :

ياكون كن لى جميلا على الدوام جديدا
أشم فى كل يوم مرمى به مقصودا
لا تبد يوما فراغا لا تبد يوما زهيدا
ابعث أسى أو سرورا لكن حذار الجمودا (١)

فهو قد بلغ به الملل من رتابة الحياة غايته ، حتى لقد رأيناه يتمنى تغيير ما يراه من مشاهد يومية تعود أن يراها ، حتى ولو إلى الأسى الذى لا نحسب أن أحدا يتمناه ، بل إنه ليتمنى الفراق ممن يحب ، على مرارة هذا الفراق ، حتى يحس بمتعة اللقاء وحتى يمكن لفرحة اللقاء أن تتجدد ، فيتجدد بذلك شعوره بالبهجة والسعادة ، إذ لا يمكن أن يحسهما تماما ، دون أن يسبق هذا اللقاء فراق مرير ، يريد كل هذا بل إنه ليود — لو استطاع — عن طريق توالى البعاد واللقاء أن يعشق ألف مرة ، حتى يستشعر لذة العشق ألف مرة ، وأعتقد أنه لولا الملل الذى أحسه وأصبح يسيطر عليه وعلى مشاعره ما انصرف خياله إلى مثل هذه الأمنيات ، وإلى هذه التبريرات التى نقرأها فى هذه الأبيات والتى أحسب أن الخطاب فيها موجه صراحة إلى زوجته بحسب ما فهمته من قراءتى للبيت الثانى منها :

إننى أشتهى البعاد زمانا مثلما أشتهى التواصل حينا
لا أحب اللقاء عهدا مقيما مستمرا به نقضى السنينا
إن هذا البعاد يبعث بى الأشواق حرى ويستجيش الحنينا

(١) من قصيدته ياكون المنشورة بالرسالة عدد ٤ اكتوبر ١٩٣٥ .

أنفق العمر مسرفا فإذا أقبـل يوم اللقاء كنت ضنينا

كل حين لنا لقاء سعيد ووداع أطوى عليه شجونا

وتزيدين فى البعاد جمالا ورواء وبهجة وفتونا

كل يوم أجدد الحب بالبعد وأحيي منه فنونا فنـونا

فكأنى عشت ألفا وما زلت الفتى الوافى الذى تعرفينا(١)

- ١٢ -

ولقد حاول « فخرى أبو السعود » ذات مرة ، أن يفلسف حياته فلسفة وردية ، وأن يضفى عليها لونا من التعقل ، والرضى بالواقع ، حتى يستسيغها ويرضى عنها رضاء لا إكراه فيه ، ومن ثم نظم إحدى قصائده مستهدفا لوم الشاكين والباكين والضائعين من الشعراء الذين ملئوا الدنيا من حوله بكاء وأنينا فقد كان البكاء والأنين سمة من سمات عصره إذ كانت « الرومانسية » الحزينة ترفرف بأجنحتها الحالمة ، على الشباب من شعراء هذه الفترة وقد جاء فى هذه القصيدة (٢) قوله :

أكل أخي شعر خدين بلابل(٣) يفوز سواه بالأمانى والنعمى

فهذا شكا فى جنبه ألف طعنة وذاك طوى فى كل جارحة سهما

وذا صدره نار ، وعيناه ديمة وأضلاعه حرى ، وأحشاؤه كلمى

وذاك : بطيء ليـله متطاول يساهر فيه وحده الأفق والنجما

وذلك أضواه وأوهى اصطباره غرام مشى فى جسمه : ينحل الجسما

وذلك يبكى كالوليد ساخطا بلا سبب يدرى ولا غرض يسمى

ثم يحاول أن يسترعى انتباه هؤلاء المتشائمين إلى ما فى الطبيعة من

---

(١) قصيدة « البعاد » ونشرت بالرسالة الصادرة فى ٤ أكتوبر ١٩٣٧ ص ١٦٣٠ .

(٢) قصيدة « تمادوا بشكواهم » نشرت بمجلة الرسالة العدد ٩٩ فى ٢٢ ابريل ١٩٣٥ ص ٦٦٨ .

(٣) يشبه هذا قول المتنبى فى مطلع قصيدة « اذا كان مدح فالنسيب المقدم – اكل فصيح قال شعرا متيم ؟ » .

رؤى فاتنة ، وما فى مجاليها من محاسن باهرة ، يمكن أن تسرى عن المحزونين أحزانهم ، وأن تهب السلوى لمن يفتقدونهـــا . : فيقول فى القصيدة نفسها :

وكم فى رحيب الكون من أنعم ومن ... محاسن تصبى العين والروح والفهما
وكم عرضت فينا الطبيعة حسنها ... بلا ثمن غنما لمن بادر الغنما
ترى فى مجاليها وألوان حسنها ... عزاء لمن يأسى وريا لمن يظما

ونحن لا نرى فى المقطوعة الأولى من هذا النموذج غير مجموعة من الأوصاف التى يطلقها بعض المتهكمين على الشعر والشعراء ، فى الروايات المسرحية الهزلية ، لإثارة الضحك عند المشاهدين نظمها الشاعر بأسلوب مهذب نوعا ما فى هذه الأبيات ، فليس فيها – فيما نحس – دفقة الشعر ولا عفوية الشاعر .

وأما المقطوعة الثانية ، فهى لاتزيد على أنها سرد باهت لبعض محاسن الطبيعة ودعوة متهافتة لاستجلائها والاستمتاع بها ، والعيش فى ظلالها ولا تدانى هذه القصيدة فى جملتها أيا من قصائده التى نظمها هو نفسه خالصة للطبيعة .

- ١٣ -

ومع ذلك فإن الشاعر كثيرا ما أعلن سخطه ، وعبر عن قلقه ، ولم يعد يرى فى الطبيعة إلا صورة مجسمة بشعة للظلم الذى يتغلغل فى كل ظاهرة يمكن أن تلمحها العين ، فى مجالات الطبيعة مهما تعددت مناظرها ، ومهما بدت هذه المناظر أخاذة بجمالها ، باهرة فى إشرقها ، وهو فى حالات رفضه أقوى وأقدر على التعبير ، قوة وقدرة لايمكن أن تصل إليهما أى حالة من حالات تبريره ، وربما كانت قصيدته « سل الجديدين » (١) من القصائد المعدودة التى يمكن الاستشهاد بها فى هذا المجال ، وهو – فى هذه القصيدة – يستعرض ألوانا عديدة مما تعرضه الطبيعة علينا ،

---

(١) انظر القصيدة فى المختارات .

ويبين ماوراء كل منظر جميل رائع فيها من مآس فظيعة ، وأهوال لايمكن أن تقاس إليها متعتنا بها ، وهى عنوان على مايمكن أن تبثه قصيدة جيدة من أفكار سوداوية فى نفس مستمعها ، ونتخذ من وصفه للغابة فى هذه القصيدة ، نموذجا لباقى أجزائها من جهة ، ولمدى استغراقه فى تأملاته التشاؤمية ، واستخراجه للصور التى تعبر عن أحاسيسه من جهة أخرى ، ذلك حيث يقول فيها :

تروقك الغابة الفيحاء ناضرة ... يرف بالحسن عاليهـــا ودانيها
وبين أطوائهـــا حرب مخلدة ... تعج ما بين ماضيها وآتيها
فى عشبها أو ثراها أو لفائفها ... يكن رائحهـــا شرا لغاديها
وما اغتذى حيها إلا بهالكها ... ولاسما نضرها إلا بذاويها
تغلغل الظلم فى أحنائها وعدا ... على الضعيف من الأحياء عاديها
فى كل طرفة عين ثم مهلكة ... أو ثم معركة ياويل صاليها
تشقى وتألم آلاف مؤلفة ... فى كل آن وتردى فى مجاليها

بل إنه وبعد أن كتب القصيدة التى ينعى بها على المتشائمين والحزانى ، وفى أول ينـــاير سنة ١٩٣٩ على وجه التحديد ، نشر مقالا بالهلال يبرر فيه الروح المتشائمة عند الشباب ، وهذه المسحة الحزينة التى تجلل إنتاجهم الشعرى بوجه خاص ، يقول فيه . . « وقد يبدو عجيبا لأول وهلة أن أشعار الشباب تفيض ألمـــا وسخطا وتمردا . . ولكن لاعجب إذا تذكرنا أن الشباب هو عهد المطامع التى لايتسع لها صدر هذه الحياة ، وعهد المثل العليا التى تصطدم بحقائق الحياة المتحجرة ، وتتحطم على صخور الواقع المؤلم ، فلا غرو إذا كانت حياة الشباب أحلاما جميلة يصحو فيها بين حين وآخر ، فيرى نفسه فى ظلمات الحياة المطبقة ، فيشتد عند استيقاظه صراخه ، ويتابع فى النظم والنثر تمرده وسخطه .

ونحن نعرف أن « فخرى أبو السعود » حين ترجم أحد الأعمال الأدبية الكبيرة لم يجد أمامه عملا يلائم مشاعره غير رواية « تس » « لتوماس

هاردى » الذى يقول فيه « فخرى» نفسه ، إنه يعسر عليك حقاً أن تجد فى آثار « هاردى » على كثرة ما نظم وما نثر موضعاً لمسرة ، أو معرضاً لفكاهة (١) .

- ١٤ -

لقد انهار الجدار الذى أقامه « فخرى » من إرادته ، انهار لأن مقدماته لم تكن أصيلة نابعة من أعماقه ، لقد كان كل ما يرتديه من أردية الصلابة والحدة والتعقل ، كان كل ذلك وافدا عليه ، بتأثير من عوامل شتى ، قد يكون منها أثر بيئته وتربيته وقد يكون منها عوامل أخرى لم نهتد إليها بعد ، وحتى إقامته فى انجلترا ، لم تجد فى إقامة توافق بينه وبين المجتمع المفتوح الذى وفد إليه ، بل لعله كان هناك أكثر نفوراً ، أجل فقد كان فى انجلترا يعيش منعزلا ، إلا من تالك التى صادقته يوماً فاتخذها زوجة ، ذلك لأنه أحس إحساساً ساحقاً ، بأنهم ينقمون على المتفوقين منا ، ويضمرون للآخرين الازدراء وأنهم يعتبروننا جميعاً متأخرين جهلة(٢) ومن هنا كان انعزاله عنهم ، واستعلاؤه عليهم ، وأعتقد أن « فخرى أبو السعود » استقى من هـــذا النبع ، قصائده الوطنية الملتهبة ، التى تشتعل حماسة ضد الإنجليز ، والتى كان يبعث بها إلى الرسالة لعلها تثير روح العزة والنخوة فى أبناء وطنه ، حتى إذا عاد إلى وطنه ، اصطدم بالفساد الحزبى ، وتناحر القادة على مصالحهم الخاصة ، وبعد الأمة النسبى عن العمل على تحقيق الحرية والاستقلال ، فانطوى على نفسه وفقد الأمل فى مجتمعه ؟

وإذن فقد توافرت له فى رأيه عن قصد أو عن غير قصد كل عوامل النفور من المجتمع والبعد عن الناس . ومن هنا أيضاً ضل أمام مشكلاته ، ولم يهتد إلى حل يريحه ، ولم يجد بداً عندما تكاثفت

(١) نفس مقاله بعدد الهلال المذكور .

(٢) مقال فخرى أبو السعود بعنوان « تعد ذنوبى » بالرسالة ص ٤١٨ عدد ١٢ مارس ١٩٣٤ .

أمامه ، وتحالفت عليه ، وراحت تأخذ بتلابيبه ، من أن يصرح بكل ما يملك من قوة ، ومن حيرة أيضاً .

قد شرد اللب تفكيرى وأجهدنى ... وما اهتديت لأمر فيه مقتنع
وكلما زدت علما زدت وا أسنى ... جهلا . ولم أدر ما آتى وما أدع (١)

ولم يستطع أن يصمد طويلا ، بل ألقى بسلاحه . . وهو لم يزل فى شرخ شبابه على أرض المعركة وأعلن استسلامه وإقراره بما يعيش عليه الناس ، من نقائص لا يمكن إصلاحها :

صاح ذا عالم النقائص من ... رام كمالا به أراد المحالا
من أراد الكمال فى كل قصد ... حقر السعى واستخس النضالا
من بغى المنتهى أقام فلم ... يبرح وعاف المثال والأفعالا (٢)

- ١٥ -

ولم يجد أمامه غير الموت ، يناجيه ويدعوه ويصفه بأجمل النعوت ، ويرى فيه الطبيب الأمثل الذى يمكنه أن يداوى هذه البشرية الجاحدة المليئة بأنواع الشرور والأذى من أدوائها هذه ، وأن الموت هو الصديق الصادق ، وأن الناس إنما يكرهونه بلا وعى منهم مثلما يكره الطفل الطبيب الذى يحمل إليه راحته ، وإنه — فيما يرى — الواحة التى يأوى إليها من شفه قيظ الحياة ، وإنه فوق ذلك كله — بلاغ النفس الحائرة فى دروب من الشك — وقد يكون فى هذا ، مفتاح يعيننا على فتح باب سر من الأسرار التى عاش « فخرى » شقياً بها ثم أصبح فى النهاية لا يطيقها .

لقد أصبح الموت بالنسبة إليه أمنية ، وإن اغتال المنى جميعاً ، وذلك لأنه سيريحه منها جميعاً ، ورحم الله المتنبى حين قال عن جدته :

(١) من قصيدة « كلفت نفسك عسرا » الرسالة ص ٨٢٧ سنة ١٩٣٥ .
(٢) من قصيدة « الكمال » ص ١١٨٩ من الرسالة ٢٠ يوليو ١٩٣٦ .

ولم يسلها إلا المنـايا وإنما أشد من السقم الذى أذهب السقما

ولنستمع إلى « فخرى » معا وهو يتغنى بهذه الأبيات التى يناجى فيها الموت ويستعجل لقاءه :

أيا قادماً تخشى النفوس قدومه لأنت صديق فى ثيـاب غريم

قدومك تحرير الأسارى ولو درت لما أنكرتك النفس يوم قدوم

كما ينكر الطفل الطبيب وعنده له برء أسـقام ودمل كلوم

إذا قست الدنيا على متعب بها بسطت له لأيا جناح رحـيم

ومن شـفه قيظ الحيـاة أغثته ببرد نسيم فى الأصيـل رخيم

وأنت بلاغ النفس حيرى مروعة بوادى شكوك جمة وهمـوم

فأنت، وإن غلت المنى ،أطيب المنى وفيك نعـيم المرء أى نعـيم

ولو علم الجانى لما جاد عامداً على خصمه بالموت جود كريم

وأنت تريح الفكر من كل معضل يظل له فى حـيرة ووجوم

عزاء لبعض الناس أنك قادم وأن شقاء العيش غير مقيم(١)

بل إنه ليذكر فى نشوة وطرب أنه سيحل ضيفاً على مدينة الموتى حيث القبور التى يغمرها ضوء القمر البللورى وحيث يجد فيها من سبقه من أحباب ، لما يزل قلبه يستعر بالشوق إليهم ، ومن هذه القصيدة قوله : —

سأجىء هذى الدار يوماً لاحقاً من غادروا بالقلب برح سعير

وتقر فى تلك الغيـابة أعظمى من بعـد كد دائب مكرور

يسلو بها قلبى قـديم مآرب كانت وينزع عن أسى وحبور

غفلان عن سال لذكرى جامد أو جائد بفـؤاده المفطـور

ويطل ذاك البدر فوقى زاهيـا يجلو سـناه غياهب الديجور(٢)

(١) انظر قصيدة الموت ضمن المختارات .

(٢) انظر قصيدة سأجىء هذى الدار ضمن المختارات .

- ١٦ -

وكومضة المصباح فى النزع الأخير ، قبل أن تخنقه الظلمة ، ارتفع صوت « فخرى أبو السعود » فى صيحة يعلن فيها عن رغبته فى الحياة ، حياة تستغرق أعماراً وأعماراً ، وتكفيه ليتنقل فى الأعصر المتوالية وليشهد أحداث القرون جميعاً ، بل يعلن حسرته أنه ليس إلا فرداً واحداً ، لا يملك غير عمر واحد ، لايمكنه من مشاهدة ما يريد ، ومشاركة الدنيا فيما تبديه من أعاجيب ، ذلك حيث يقول من قصيدة نشرها قبل أن يموت بأشهر معدودة :

ليت لى عمراً فعمراً مثلما	تشرق الأنوار بعد الظلمات
إن مضى عمر تلاه غيره	علنى أصحب فوج الحادثات
ليتنى أدرك أجيالا تلى	حافلات بأعاجيب الحياة
لأرى الأحداث فى تردادها	وأرى الكون جديد الخبرات
أنا فرد واحد بين الورى	ليتنى شتى شخوص وفئات (١)

ولكنه ما لبث أن فاجأنا بقصيدة أخرى ، قصيرة ، بلغ من قصرها أن أحداً لايستطيع أن يقيس لها زمناً ، قصيدة لم يجر بها قلمه ، ولم ينفتح عنها فمه ، وإنما انطلقت من مسدس صغير فى يده فاستقرت فى رأسه ، وهو مسترخ على كرسيه الطويل ، بحديقة داره الصغيرة برمل الإسكندرية صبيحة اليوم الواحد والعشرين من أكتوبر سنة أربعين وتسعمائة وألف من الميلاد .

- ١٧ -

وبعد . .

فقد انتهى المطاف بنا إلى حيث انتهى الرجل . ووقفنا معه فى هذه الرحلة عدة وقفات كان يبعد عنا فيها خطوة إثر كل وقفة .

(١) قصيدة شتى شخوص العدد ٨٣ من الثقافة الصادرة فى ٣٠ يوليو سنة ١٩٤٠ ص ٣٣ .

ولعل الأولى كانت هـذه الانطوائية ، تلك التى تجلت فى كثير من تصرفاته ، وكانت الوقفة الثانية وليدة الأولى ، إذ لا تستبد الحيرة حتى تبلغ مداها ، ولا يتقوى الشك حتى ينال من صاحبه ما يريد ، إلا إذا مهدت الانطوائية لهما السبيل إلى ذلك ، ثم رأيناه فى شعره ساخطاً على الغرب ، قليل الثقة فى الشرق ، وكانت قلة ثقته هذه ، أثر من آثار انطوائيته كذلك .

ثم كان الملل الذى سيطر عليه ، ولون كثيراً من أفكاره ، وبالتالى قصائده ، ومن ثم راح يتمنى الخلاص منه ، على أى صـورة من الصور . .

وأخيراً انتهينا إلى أن الرجل لم يبق له من عالمه غير زوجه وطفله فلما انتزعهما القدر منه أسقط فى يده ، وكانت هـذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير .

ومن هنا رأيناه ساهما لايلوى على شىء ، ولا يقدر على شىء . . فلما دعى إلى حفل ذكرى محمد تيمور ، لبى الدعوة فقد كان يؤمن بعبقريته ونبوغه ، ولكن القدر لم ينصفه ولم يمهله فانتزعه فى بداية الطريق . .

كما لم ينتصف هو نفسه ، ولم يعبأ القدر كذلك بأمانيه ، ولا بمثله بل ولا بوجوده ، وكانت قصيدته ليلتها ، صـدى آليا لمقدرته على النظم ، فقد كان الرجل قد فقد روحه ، ووجوده ، وكيانه ، وكان على المسرح ساعتها مجرد صدى لرجل ميت ما لبث أن استعجل إسدال الستار على جثته ، ومن ثم خر صريعاً على أرض المعركة ، هذه المعركة التى لم يكن بها محارب سواه ! بعد هذه الليلة ببضعة أيام . .

الفصل الثاني

- ثائر بلا صدى
- حواء والشاعر
- الشاعر الوصّاف

ثائر بلا صدى

تمهيد

فى ٢٠ من يونيو سنة ١٩٣٠ أسند الملك فؤاد الأول رئاسة الوزارة إلى « إسماعيل صدقى باشا » الذى كان معروفا بميوله الاستبدادية وخصومته الواضحة للشعب ، وكان اختياره لهذا المنصب ـ فى ذلك الوقت ، ونظرا للظروف التى أحاطت به ـ يعتبر تحديا للشعب واستهانة بحقوقه ، بل وبكرامته أيضا ، ويمكن أن نلمس هذا فى الخطاب الذى تقدم به إسماعيل صدقى للملك والذى يشكره فيه على الثقة الغالية التى أولاه إياها . . ثم يقول بعد فقرات « . . . : وستنتهج الوزارة فى سبيل الوصول إلى بث الطمأنينة ، الوسائل الطبيعية ، والأسباب النظامية وهى قوية الرجاء فى ألا تلجئها الظروف ـ على كره منها ـ إلى الأخذ بغير تلك الوسائل والأسباب ... »(١) ومعنى ذلك أن إسماعيل صدقى حدد فى هذه الكلمات للأمة طريقين لاثالث لهما ، وهما طريق الخضوع والإذعان لما يريده ، ، أو الاستهداف للشدة والإرغام إذا لم تشأ تنفيذ هذه الإرادة ، ولكى يصنع لنفسه لافتة ديمقراطية يقف تحتها ، إمعانا فى السخرية من عقول بعض الناس ، اصطنع حزبا جديدا أسماه حزب الشعب ثم ضم إليه بعض الوصوليين من أنصار السراى وكانوا يطلقون على أنفسهم حزب الاتحاد ، ومن هذين المسخين أقام وزارة تمثل المؤتلفين وإن كان هؤلاء المؤتلفون لايمثلون إلا أشخاصهم وليس لهم فى الجماهير الشعبية أية جذور .

ومن هنا ، وثورة على هذا الوضع البالغ الاستهتار بالشعب ، صاحب الحق الشرعى فى اختيار حكامه ، قامت المظاهرات فى كل مكان

(١) الجزء الثانى من كتاب فى أعقاب الثورة المصرية لعبد الرحمن الرافعى ص ١١٠ .

بالقطر ، ريفه وصعيده ، مدنه وقراه ، قتل فيها وجرح الكثيرون ممن واجهوا الموت ، وهم يهتفون بالعدالة والحرية ، ومن الأمثلة الدالة على عنف هذه المظاهرات وحدتها ، أن الإسكندرية وحدها فقدت في يوم واحد هو ١٥ يوليو سنة ١٩٣٠ عشرين قتيلا من أهلها على حين بلغ عدد الجرحى خمسمائة جريح (١).

وإمعانا في المهانة والإذلال بادرت الحكومة الإنجليزية فأرسلت بارجتين حربيتين إلى الإسكندرية بدعوى حماية أرواح الأجانب في المدينة فكان لحضورهما وقع أليم(٢).

وبالغ الملك في امتهانه للشعب فألغى دستور سنة ١٩٢٣ ، وكان يمثل وقتها — على مافيه من نقص — أماني البلاد ، وكان الملك قد أقسم من قبل على احترامه ولكنه ما لبث أن عبث بقسمه هذا وألغى هذا الدستور ، ثم أصدر بدلا منه دستور سنة ١٩٣٠ الذى أبته الأمة كل الإباء ، إذ لم يكن لحقوقها فيه مكان ما .

واتخذت الحكومة الضمانات التى رأت أنها تتيح العمل بهذا الدستور أطول مدة ممكنة ، فكان من مواده أنه لا يجوز النظر فى تعديله قبل مرور عشرة أعوام من العمل به .

هذا مع أنه كان لا يلزم الحكومة بشيء ذى قيمة ، حتى إن مشروع طرح الثقة بالحكومة — وهو حق معترف به فى الدساتير — أحيط فى هذا الدستور بسياج من الإجراءات التى تجعل تنفيذه مستحيلا(٣) ، وقد أباح هذا الدستور للملك أن يهمل أى قنون بعد أن يجيزه البرلمان — إذا رغب فى ذلك — كما جعل دعوة البرلمان للاجتماع غير العادى مرهونة بإرادة الملك(٤) .

---

(١) نفس المرجع صفحة ١٢١ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٢
(٣) نفس المرجع ص ١٣٤ .
(٤) نفس المرجع ص ١٣٧ .

وعادت المظاهرات الدامية تجتاح البلاد من جديد ، وائتلفت الأحزاب على اختلاف وجهات نظرها متحدة أمام هذا الطغيان السافر ، وتعددت وسائل التعبير عن سخط الشعب وغضبه ، وكانت محاولات اغتيال صدقى باشا لوناً من ألوانها . .

ثم أصيبت البلاد بأزمة اقتصادية حادة هبط فيها سعر قنطار القطن من أعلى رتبة إلى عشرة ريالات ، واتخذ صدقى بعض الإجراءات التى رأى أنها يمكن أن تقف بالبلاد على حافة الهاوية فحسب ، دون أن تردى فيها ، ولكن إجراءاته لم تكن جذرية وإنما استهدفت فى الأغلب حفظ أموال الرأسماليين ، ومن هنا اشتد الضيق بالفلاحين الذين فر الكثيرون منهم إلى المدن بحثا عن القوت الضرورى ولبيع القوى الكامنة فى سواعدهم بأبخس الأثمان . .

كذلك كشفت التحقيقات التى تمت فى بعض القضايا عن مخاز عديدة ، منها قتل المواطنين وتعذيبهم انتقاما منهم لاتجاهاتهم السياسية ، كما اكتشفت حوادث أخرى تحمر لها الوجوه خجلا أو تصفر منها خزيا لعبت فيها الرشوة واستغلال النفوذ أدوارا ذات أثر خطير . .

ولم يجد « إسماعيل صدقى » — وقد طفح الكيل — بدا من أن يستقيل خوفا من الانفجار الشعبى وكان ذلك فى ٢١ سبتمبر ١٩٣٣ وقد جاء فى رد الملك فؤاد بقبول هذه الاستقالة هذه العبارات « . . ولا يسعنا حرصا على صحتكم إلا إجابتكم إلى ملتمسكم . . راجين لدولتكم كمال العافية . . حتى تساهموا فى خدمة البلاد بما عرف عن دولتكم من المقدرة الفائقة وإنا شاكرون لدولتكم ماقدمتم للبلاد من أعمال مجيدة . وخدمات جليلة . . » (١) وكان هذا الرد وحده إمعانا ملموسا فى الازدراء بشعور الأمة وقتئذ . . (٢)

---

(١) المرجع السابق ص ١٨١ .

(٢) يلجأ الملوك أحيانا ـ اذا اشتد غضب الشعب الى استبدال وزير بوزير آخر ففى هذا الاستبدال امتصاص مؤقت لغضب الجماهير ، وقد حدث هذا فعلا عند مقدم هذه الوزارة

ثم أسند الملك رئاسة الوزارة إلى « عبد الفتاح يحيى باشا » فى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ وقد أدرك الإنجليز ضعف هذه الوزارة وانفصالها عن الشعب وخذلان الشعب لها فأخذوا يستهينون بكرامتها وتعددت مظاهر استعلائهم عليها ، فتدخلوا فى حياة الملك الخاصة وفى المناصب الكبرى ، وقاموا بزيارة بعض المنشأت الحكومية والتفتيش عليها بدون علم الحكومة ، ولم ير عبد الفتاح يحيى وقد شعر بالهوان والذلة إلا أن يتقدم باستقالته فقبلها الملك فى ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ وعهد إلى « محمد توفيق نسيم باشا » بالوزارة وقد حدثت فى عهده بعض المظاهرات وبخاصة إثر تصريحات الوزير الإنجليزى صمويل هور المعادية لمشاعر الجماهير (١) وقد ظل « نسيم » فى الوزارة حتى ٢٢ يناير ١٩٣٦ حيث جاءت وزارة على ماهر التى أجرت الانتخابات ومن ثم فاز فيها حزب الوفد بالأغلبية ووصل إلى مقاعد الحاكمين . .

- ١ -

أعتقد أن هذا التمهيد كان ضروريا – بالنسبة للشبان الذين لم يعاصروا هذه الفترة من تاريخ مصر على الأقل – وذلك لبيان المناخ الذى كان يعيش فيه الشاعر « فخرى أبو السعود » الذى كان ينفعل بمؤثراته ، ومن ثم ينظم أحاسيسه الناجمة عن هذا الانفعال ، شعرا لا يمكن أن تجحد صدقه ، حتى وإن تعددت أمامك منافذ القول فيه .

ويمكننا أن نقول إن إقامته فى انجلترا فى النصف الأول من هذه الفترة ورؤيته للشعب الإنجليزى عن كثب ، وهو يستمتع بحريته ، ويمارس حقوقه السياسية على الوجه الأكمل ، ثم مقارنته بين حياة هذا الشعب ، وبين حياة شعبه هو على ضفاف النيل ، حيث يسيطر عليه حكامه بالحديد والنار ، وبما هو أقسى من الحديد والنار ، ثم لايقيمون لرغبته ولالمشاعره وزنا ، أى وزن . كل ذلك كان له بلاشك أثره البالغ فى

(١) فهمت الجماهير من هذه التصريحات معارضة انجلترا لعودة دستور سنة ١٩٢٣ وقد كانت هذه العودة من أهدافها الكبرى فى تلك الأيام .

أحاسيس « فخرى أبو السعود » ومن هنا تفجر بيانه بهـذه القصائد الملتهبة التى نظمها وهو يتلقى العلم فى انجلترا أى فى البلد المغتصب ذاته ، فمن هناك ، بعث إلى مجلة الرسالة بقصيدته الصارخة « بنى مصر » وقد نشرتها المجلة فى ١٥ يناير ١٩٣٤ وكانت البلاد قد جنحت إلى الاستكانة فترة من الزمن فى أثناء وزارة « عبد الفتاح يحيى » ومن هذه القصيدة قوله :

إلام تغيب الشمس عنا وتطلع ونلعب فى ظل الحياة ونرتع
نهيم بهزل لا نهيم . . بغيره ونهرب من جـد الحياة ونفزع
ونشحذ من آبائنا وجـدودنا فخارا على أعقابهم ليس يخلع
نتيـه بتـاريخ لهم ومآثر قيـام على الأيام لا تتزعـزع
وما هى مالم نحى إلا صحائف بوال ، وأطلال خوال ، وأربع
وفيم تباهينـا بعـز ورفعـة وحاضرنا قفـر من العـز بلقع
تبرأ ماضى المجد منه ، ولو درى لطاش له خوفو ، وأذهل خفرع
وريع الفراعين العظام ، وأجفلوا وهالهم هـذا التراث المضيع
رأوا أمة تمشى وراء زمانها وقد عرفوها فى الطليعة تطلع[1]

- ٢ -

ولقد كانت الامتيازات الأجنبية أيامئذ ، داء عضالا استشرى فساده فى الوادى من أقصاه إلى أقصاه ، ولم يدع الأجانب منفذاً فيها يمكن اعتصار ثروة الشعب بواسطته ، إلا ونفذوا منه ، وتسللوا تحت حمايتها إلى كل المرافق الاقتصادية للأمة ، تحميهم من أنفسهم محاكمهم الخاصة ، ومن الأمة محاكمهم المختلطة ، التى مهدت لهم كل سبل الإثراء الفاحش ، واستغل هؤلاء الأجانب طيبة الكثرة من أبناء هذا الشعب ، ونظرتهم إليهم ، على أنهم خواجات من بلاد بره ، لهم علم وفن وفكر ، وأنهم — فوق ذلك — ضيوف علينا ، يجب إكرامهم ، ولكن هؤلا

(١) انظر القصيدة كاملة ضمن المختارات .

الأجانب ، كانوا قد فقدوا ضمائرهم ، وراحوا يستغلون ذلك كله أبشع استغلال ، وأثار كل هذا « فخرى أبو السعود » وهو فى انجلترا يرى بعينيه أن الشعب هناك ، هو سيد أرضه ، ومالكها الحقيقى ، بل إن الإنجليزى فى بلاده ينظر إلى الأجانب بازدراء ، لقد قالت له زميلته الإنجليزية فى صراحة « إن الإنجليز لا يحبون الأجانب بعامة لأنهم يعدون أنفسهم سادة العالم »(١) ومن هنا ، وبتأثير من كل هذا ، أو من بعضه ، نظم قصيدته « أعداء لا ضيوف » وبعث بها إلى الرسالة فنشرتها فى ٢٦ فبراير ١٩٣٤ ، (٢) وهو فى افتتاحية هذه القصيدة يوجه الخطاب إلى هؤلاء الضيوف الثقلاء فيقول :

فضوليون أنتم لا ضيوف ... ثقلتم فى منازلنا مقاما
زعمتم مالكم ، دم مصر ، يحيا ... به أبناؤها ، عاما فعاما
وما أموالكم إلا بلاء ... تسرب فى دم الوادى سماما
وداء فى مفاصله عياء ... مشى يبرى المفاصل والعظاما

ثم يوجه الخطاب إلى أبناء وطنه من المصريين فيقول :

بنى مصر بغى اللؤماء بغيا ... علام نطيق بغيهم علاما
أخو الافرنج إن تكرمه يشمخ ... عليك وإن تقومه استقاما

ثم يطالب المصريين ، بأن يعملوا على شل أيدى هؤلاء الأجانب عن اقتصادياتنا ، حتى يمكن أن نتنفس ، ويدعو كذلك إلى إلغاء هذه الامتيازات الجائرة الملعونة ، وإلى تحطيم قيودها فيقول :

أشلوا عن تجارتنا يديهم ... فقد ملكوا بها منا الزماما
وقدوا عن معاصمنا امتيازا ... يكبلنا به القوم اهتضاما

---

(١) مقال لفخرى ابو السعود بالعدد ٣٦ من الرسالة ص ٤١٨ الصادر بتاريخ ١٢ مارس ١٩٣٤ .

(٢) ص ٣٤٤ عدد ٣٤ .

ولم أر مثــلة ذلا وعارا وغبنا ، للعــدالة واحتراما
أذاقونا المــذلة فى حمانا وإن نصمت.. أذاقونا الحماما

- ٣ -

على أنه يمكن أن نشير إلى قصيدته « يوم التل » باعتبارها أهم القصائد التى نظمها فى هذه الفترة — فترة التغرب — من الوجهة الوطنية ، ووجه الأهمية فى هذه القصيدة موضوعها ، ذلك أن الناس كانوا يستشعرون العار تجاه ذكرى هذا اليوم المشئوم باعتباره يوم المعركة الفاصلة التى انتصر فيها الإنجليز على عرابى ومن ثم تمت لهم السيطرة على وادى النيل ، ومن هنا كان فريق كبير من الناس يلقى بالتبعة على قادة جيشنا فيه — كأن المعركة كانت بين قوتين متكافئتين ، أو مصدقين لما كان يشيعه المستعمرون حول هذه المعركة من أقاويل ، من شأنها أن تحط من قدر الذين ضحوا بحياتهم فيها ، ولكن « فخرى أبو السعود » فى قصيدته هذه استطاع أن ينفى العار عن هؤلاء القادة ، وأن يتخذ من هذا اليوم مصدر فخار يمكن أن يعتز البنون به :

ولم أر « يوم التل » عارا وسبة ولم أره إلا أغــر ممجــدا
أنخجل أن قمنا نذود عن الحمى ويسحب أذيال الفخار من اعتدى ؟
تدفق من عــبر المحيط مهددا فما حفلت آباؤنا من تهــددا
وقالوا شباة السيف دون عدونا وإن يك عرض البر والبحر أيدا

وقد بعث الشاعر بقصيدته هذه إلى مجلة الرسالة ، مع خطاب يبين فيه وجهة نظره فى هذا اليوم ، ويقترح عليها أن تنشرها يوم ١٥ سبتمبر ، أى فى مثل ذلك اليوم الذى وضعت فيه انجلترا يدها على القاهرة سنة ١٨٨٢ ليكون فى ذلك تذكرة للناس .

وقد استجابت المجلة لاقتراح الشاعر ، ونشرتها فى العدد الصادر يوم ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٣ ، وكان ذلك قبل استقالة الطاغية « إسماعيل صدقى » ببضعة أيام ، أى فى الوقت الذى بلغت فيه المأساة الوطنية قمتها . .

وقد تناول « فخرى أبو السعود » فى هـــذه القصيدة تفاصيل الاعتداء البريطانى على الإسكندرية والذى انتهى بإحراقها ، ثم ندد بعجز الجيش الإنجليزى عن اقتحام خطوط التحصينات المصرية بكفرالدوار .

ولما أحال الثغر جحراً مخربا — تقدم يبغى مستزادا ومهتدى
فأبصر من دون السبيل بواسلا — جثيا على هام المسالك رقدا
تصـــدى إليهم كرة بعد كرة — فأصلوه نيرانا فآب مبـــددا

ومن هنا ، وخشية من تجدد هزيمته السابقة فى رشيد ، عمد إلى مهاجمة البلاد من حدودها الشرقية ، وبين « فخرى أبو السعود » فى حرارة وطواعية ، بعض هذه الأساليب التى تندى لها وجوه الذين يستشعرون الخجل ، والتى اتبعها الجيش الإنجليزى فى هذه المعارك ، ومن بينها ما يعبر عنه فى هـــذه الأبيات :

جرى تبره فيهم وسالت سفينه — تمزق عهـــدا للقنـــاة مؤكدا
وساق على الأحرار بالتل سفلة — أتى بهم من كل فج وأعبـــدا
ولولا جنود الاثم تدفع دونه — لما مد رجـــلا للقتال ولا يدا
وما نال إلا بالجريمـــة مغنما — ولا سل إلا فى الظلام مهندا

ثم دافع عن « أحمد عرابى » فى أبيات تحمل كثيراً من معانى التقدير لهذا القائد المفترى عليه . . فقال :

سلام على قَيْلٍ تولى زمامها — أعف الورى قصداً وأنقاهم يدا
أصاب بها نجما فلما كبا بها — وأدركه منهـــا العثار تجلدا
جريرته أن رام مصر عزيزة — وشاء لها أن تستقل وتسعدا
ورام لها من طغمة الترك معتقا — وبعدا لعهد الترك أشأم أنكدا

ثم اختتم قصيدته بأنه يرجو — وقد أوحت إليه هذه الذكرى بذلك الرجاء — أن يعود مع الزمن « أحمد عرابى » آخر يحقق لمصر أمانيها :

ستذكره مصر الفتيسة ما ابتغت لدى الحق عهداً أولدى المجد موعدا
عسى ذكرنا – رغم الهزيمة – أحمدا سيبعث فينا للغنيمة .. أحمدا (١)

وقد استجاب الله لهذا الرجاء فخرج من صفوف هذا الجيش زعيم هذا الشعب .. « جمال عبد الناصر » .

- ٤ -

وعاد الشاعر من انجلترا وهو يحمل شحنة عالية من الأفكار التى كانت تتناهبه هناك بين قوم يرون فيه واحداً من أولئك الشرقيين الذين يحتاجون للتزود من علمهم وثقافاتهم ليستكملوا بها نقصاً يحسونه فى تكوينهم العلمى والثقافى (٢) .

وبين شعور جارف بما للعربى من فضل على الحضارة فى هـذا العالم ، وفى طريق عودته – قبل أن يصل إلى أرض الوطن – التقى وجها لوجه « بجبل طارق » و« لطارق » هنا رنة فى الأسماع وصدى فى الأفئدة ، لقد كان لقاء مثيراً بين الحاضر المتخاذل ، والماضى الأشم الشامخ ، وهنا وبتأثير من هذا اللقاء الموحى نظم قصيدته حصن طارق ، وقد أفرغ فيها أصداء مشاعره وأحاسيسه ، التى كانت النظرات الإنجليزية المتعجرفة تمزقها تمزيقا .

لقد مرت السفينة أمام هذا الحصن الذى تحمل أحجاره أغلى ذكريات يمكن أن يعتز بها عربى فيراه وقد :

تغيرت الدنيـا وباد قبيله وغيره دهر مضى وقرون
وقطب لما أنكر العصر حوله وسارت بما لا يشتهيه شئون
تعطل من بعد اعتصام ومنعة أسـير بأيدى الغالبين رهين

---

(١) القصيدة طويلة وموجودة بالكامل ضمن المختارات . وأحمد هنا أحمد عرابى وأحمد الثانى الزعيم المنتظر .
(٢) مقال فخرى أبو السعود بالرسالة العدد ٣٦ ص ٤١٨ بتاريخ ١٢ مارس ١٩٣٤ .

وتغلب عليه الحكمة التى أوحت بها هذه الرؤية المفجعة فيهتف من أعماقه . .

إذا لم تكن هجمات قوم حصونهم   تداعت رواسى دونهم وحصون

ويعود بذاكرته لحظة إلى الماضى فتمر الحوادث مسرعات يأخذ بعضها برقاب بعض ، متلاحقة كأنما تعرضها آلة عرض سينمائية :

تعالت بها « الله أكبر » مرة   فمادت سهول دونها وحزون
وسالت شعاب بالصوارم والقنا   وأحرق خلف الفاتحين سفين
وقامت بأطراف الجزيرة دولة   وأزهر عرفان وأشرق دين
جلا أمس عنها آلها وبنوهم   على الضفة الأخرى الغداة قطين

فلا يملك ، وقد تتابعت هذه المشاهد أمام عينيه ، من خلال شرفات الحصن الأشم ، إلا أن تتمزق نفسه حزنا ، وإلا أن تتهاوى أعماقه بكاء وأسفا ، على أثر مقارنة قاسية قادته إليها الذكريات التى أوحى إليه بها هذا الجبل . . ويروح يغمغم فى همس يقطعه النشيج :

خشعت وعادتنى لدى حصن طارق   همومى وابتلت لديه جفـــون
لشعب يسيغ الذل من بعد ما سما   له فى الورى ملك أشم مكين(1)

- ٥ -

وما أن وطئت قدماه أرض وطنه فى أكتوبر من سنة ١٩٣٤ ، حتى راعه أن الحماسة التى كانت تتقد فى صدور المواطنين ، والتى كانت تقود الجموع الثائرة ، فى أوائل عهد « إسماعيل صدقى » والتى خلفها فى أوجها عند مغادرته أرض الوطن إلى انجلترا ، راعه أن يرى كل هذا ، وقد فتر ، فى عهد « عبد الفتاح يحيى » إذ - خيل إليه - أن الأمة استنامت إلى ما يراد بها ، واستكانت فرضيت ، أو خيل إليه أنها رضيت ، عن هذا الوضع المهين .

---

(1) راجع القصيدة كاملة ضمن المختارات .

كان فى ظنه أن يعود إليها فيراها ، وقد مشت خطوة إلى الأمام فى طريقها إلى الحرية ، وإلى العدالة الاجتماعية ، ولكنه وجدها وقد ارتدت بجمودها خطوات ، فنظم أول قصيدة بعد عودته بعنوان « لا تباهوا » ونشرها بالرسالة فى ٢٩ من أكتوبر سنة ١٩٣٤ ونقتطف منها هذه الأبيات :

من لملك بات مهضوم الحمى — وتراث بات نهب الناهبين
ولأرض نام عنها أهلها — تاركيها بين أيدى الآخرين
وتخلى قادة عن أمرها — فاستوى المائن منهم والأمين

ثم يوجه الخطاب إلى القادة والذين هم فى الدرجات العلا من المجتمع حينئذ فيقول :

لايطل منا بفضل أحد — لايعز الفرد والجمع مهين
لاتساموا درجات بينكم — كلكم للغاصب العادى قطين
لا تباهوا بمغان رفعت — هى للسكنى قبور وسجون
أو بأثواب عليكم نمقت — أنتم أسرى بها لو تعلمون
حرروا أعناقكم ثم افخروا — بحطام أو بجاه تملكون

وقد استقالت وزارة عبد الفتاح يحيى بعد ذلك بأسبوع واحد إذ كانت هى الأخرى قد بلغت قمة مأساتها ذلا ومهانة .

- ٦ -

وعهد الملك « فؤاد » إلى « محمد توفيق نسيم باشا » بتأليف الوزارة ، وكان الرجل برغم جموده على وفاق — إلى حدما — مع « حزب الوفد » أكثر الأحزاب التصاقاً بالجماهير فى ذلك الحين ، وكان الوفد يطمع — إذا ما جرب سياسة المهادنة مع هذه الوزارة — أن يعود دستور سنة ١٩٢٣ ؛ وهو يعتقد أن أية انتخابات برلمانية تقوم على أساس من هذا الدستور ستدفع به حتما — بناء على نتيجتها — إلى

كراسى الحكم ، وكان الملك قد شعر بضعفه وضعف حكومتيه السابقتين أمام الإنجليز فأبدى بعض اللين أمام تساهل الحكومة ، إزاء تحركات الوفد وسياسته .

واغتنم الوفد هذه الفرصة ، فأراد إيقاظ الجماهير حتى تستشعر كيانها إذ أن من هذا الكيان يستمد الوفد قوته ، استعدادا لخطواته المقبلة ، التى يعتقد أنه يصل بها إلى الحكم ، فيمكن لأنصاره الإفادة من الحكم ، وتعويضهم ما فقدوه طيلة بعده عن الوزارة فى الفترة الماضية .

وعلى هذا دعا الوفد إلى عقد مؤتمر وطنى كبير تستعرض فيه جميع مشكلات الأمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولم تمانع الحكومة فى عقده . وعقد فى يومى ٨ ، ٩ من يناير سنة ١٩٣٥ بالزمالك .

وكان أن سجلت شركة مصر للتمثيل والسينما صور هذا المؤتمر وعرضتها فى عدد خاص من جريدتها الناطقة بدور السينما المختلفة .

وفى إحدى هذه الدور دخل « فخرى أبو السعود » وشاهد هذا الفيلم كما شاهده غيره من المتفرجين ، ولكن الذى راعه يومها ، وفجر سخطه ، أنه أحس بسخرية بعض الأجانب من رواد هذه الدار ، بالمؤتمر والمؤتمرين ، أوضحتها فى أذنيه تعليقاتهم المتهكمة ، وأبدتها لعينيه إشاراتهم الوقحة ، ولقد أحس فى هذه اللحظة ، بالوخزات نفسها التى كان يحسها فى انجلترا ولكنها كانت هنا أعمق محزا ، إنه هنا فى بلده ، وبين مواطنيه ، وهو لا يرى فى هؤلاء الأجانب إلا لصوصا ، جاءوا ينهبون خيرات بلاده ، ويستنزفون دم أبنائها ، ويخرج من السينما ليبعث لمجلة الرسالة بقصيدة نارية ، يصب فيها غضبه ، لقد تملكه الغيظ من هذا المنظر ، ولذلك راح يثير فيه النخوة والحقد والغضب ، وقد نشرت الرسالة هذه القصيدة ، بعددها الصادر يوم ٢٨ يناير ١٩٣٥ بعنوان :

« فإنك مصرى » ومنها هذه الأبيات :

أقم صاغراً وارغم حياتك واشقها ... فإنك مصرى وإنك مسلم
وإنك بين البيض أسمر كالح ... وحظك فى الدنيا كجلدك أسحم
وأنت أجير فى بلادك خادم ... وغيرك يستجدى رضاء ويخدم
تولى بأصفى درها ونتاجها ... ويرضيك ما يبقى ، ويكفيك درهم
ولا تعتبن يوما عليه إذا انبرى ... يسبك مفتاتا عليك ويشتم
فغيرك من أن مسه الحيف عافه ... وثار على مستكبر يتهضم

وينتهى من هذا التهكم اللاذع ، وهذه السخرية المريرة ، إلى قوله :

فعش راغما .. أو فاسم للعز ضاربا ... بعزم ، إذا ما أحجم الجن ، يحجم
وحزم يصم السمع عن هجو كاشح ... وجد يحب الصمت لا يتكلم

- ٧ -

ومع أن الأديان بعامة ، والدين الإسلامى بخاصة ، تدعو الناس إلى العدل أولا ، والإحسان ثانيا ، ومع أن القرآن الكريم ينادى بأجلى بيان « إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين » ويصف المؤمنين بأنهم .. « الذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » .. إلا أن حب العاجلة ، كان قد استولى على قلوب بعض الناس ، من الذين لا يرقبون فى الدين إلا ولا ذمة .. فرأينا بعض رجال الدين فى ذلك العهد ، يلوذون بالقصر ، ويتقربون فيه إلى الملك . ويسبحون بحمده ، بل إن بعض مشايخ الطرق الصوفية ، أحيا ليالى رمضان المباركة فى دار المندوب السامى البريطانى ، وراح بعض المتملقين منهم ، يفسر الآية الكريمة . « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » على أنها تعنى الخضوع المطلق للحكام ، باعتبارهم أولى الأمر ، وتعلق بعضهم بأذيال أحاديث نسبت إلى الرسول الأعظم ، وهى إما موضوعة فى زمن الطغاة من الملوك أو أنها

صحيحة وإنما تأولها المنافقون بما لا يتفق مع الهدف الأصلى لها ، ومن هذه الأحاديث « إن قلوب الملوك بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء » بمعنى أن الملك لا يلام على فعله بوجه من الوجوه ، حتى ولو كان ظلماً صراحا لأن ما يفعله ، إنما هو إرادة الله الذى لاراد لقضائه ، ودعا بعضهم إلى التواكل ، وأن يتخذ الناس عبارة « دع الملك للمالك » شعاراً لهم . . هذا إلى آخر ما هناك من آراء وأقوال مفتراة على الدين الصحيح .

ولا أقول هنا إن هذا القول يسرى على كل رجال الدين وإنما أعنى البعض منهم الذى كان يمثل الجشع المتغلغل فى النفوس ، والطمع الذى ران على القلوب .

والحق إنها كانت محنة ، شقى الناس بها حينا من الدهر فى هذه الفترة من تاريخنا ، غير أن الشعب العربى فى مصر ، كان واعيا إلى حد يدعو إلى الإعجاب ، فقد انصرفت جماهيره ، عن هؤلاء الذين انحرفوا عن الجادة السليمة ، وراحت الصحف ذات الطابع الهزلى تسخر بعض مقالاتها ورسومها « الكاريكاتورية » للنيل من هؤلاء وهؤلاء ، وانبرت المجلات الدينية تبين وجهة نظر الدين الصحيحة فيما يدعون ، وتحارب النفاق والرياء ، وتوضح ما كان عليه المسلمون فى العصور الأولى ، من حفاظ على الكرامة ، ومقاومة للطغيان ، وما قام به السلف الصالح من تحد للحكام الذين انحرفوا عن جادة الصواب . . أولئك العلمـــاء الذين تفخر بهم مسيرتنا التاريخية العظيمة .

* * *

وتأثر « فخرى أبو السعود » بهذه التيارات التى كانت تصطرع من حوله وانحاز بطبيعة تكوينه الفكرى إلى الجانب السليم ، ومن ثم أسهم بقصيدته « الله قد عبدوا ! » ، والتى نشرتها الرسالة فى العدد ٨٥ الصادر فى ١٨ فبراير ١٩٣٥ ومن هذه القصيدة قوله :

يا قوم من شرعة الإسلام دينكم أن ليس يعبد إلا الواحد الصمد
الله ليس يحب الدين من أمم لغيره طأطأوا أو غيره عبدوا

ويستطرد فى هذه القصيدة حتى يصل إلى قوله :

من لى بعهد به آباؤنا ملكوا بكفهم كل ما حلوا وما عقدوا
لايقبلون وصاة الأوصياء ولا أحكام من أسرفوا فى الحكم أوقصدوا
الله قد عبدوا ، دون الورى ، وله بذاك فى الصلوات الخمس قد شهدوا

- ٨ -

وكانت هذه التيارات المختلفة ، تحاول أن تأخذ طريقها إلى مفاهيم الناس ، ولكن الصحافة ومن خلفها جماهير الشعب ، كانت لا تفتأ تفند هذه الأباطيل التى يراد بها صرف الشعب عن مطالبه الحقيقية وراحت هذه الصحف تطالب بعودة دستور سنة ١٩٢٣ تنفيذا لقرار المؤتمر من جهة ، ولأنها كانت ترى فيه — على ما به من نقص — أنه الطريقة الأكثر مثالية ، التى يمكن أن يجد الشعب فى ظلها ما ينشده ، من حكم يستطيع أن يصبح رقيبا عليه — ولو إلى حد ما — لو أراد ذلك ، وصمم على ما أراد . ولقد بالغ الوفديون فى تعظيم هذا الهدف ، حتى كادت الأهداف الأخرى تفقد مكانتها تماما وقد كان من بينها الاستقلال التام الذى لم يعد هناك من يفكر فيه سوى أفراد قلائل .

* * *

وخشى « محمد توفيق نسيم » أن يتهاون فى الاستجابة لهذه المطالبات بالدستور فتسوء العلاقات التى قامت بينه وبين الوفد ، وبالتالى تتعقد الأمور التى قد يؤدى تعقيدها إلى انحدار البلاد فى هاوية من الحرب الأهلية ، فتقدم إلى الملك (فؤاد) بخطاب مؤرخ فى ٢٠ أبريل سنة ١٩٣٥ يلتمس فيه أن يتفضل فيأذن بعودة هذا الدستور ، وقد أجابه الملك بخطاب فى اليوم نفسه مؤداه أن الملك يوافق مبدئيا على اقتراح عودته (١) ، ولكنه لم ينفذ

(١) ص ٢٠٠ من الجزء الثانى من كتاب فى أعقاب الثورة المصرية لعبد الرحمن الرافعى .

ما جاء فى خطابه فورا ، ومعنى ذلك أن الملك قام من جانبه ، بتخدير مؤقت لمشاعر الجماهير الثائرة . .

ومرت شهور ثلاثة بعد هذا التصريح ، والشعب ينتظر وفاء الملك بوعده ، وعودة هذا الدستور ، والتقاء النواب بساحة مجلسهم ، ولكن الزمن يمر ، ولم يتحقق شيء من هذا ويناجى « فخرى أبوالسعود » دار النيابة المغلقة بقوله :

يا دار قد عبثت بك الأقدار   وبغى عليك المعشر الأشرار (١)

ثم يشير بعد أبيات منها ، إلى البرلمان فى أول عهده ، عندما لمعت فيه أسماء نواب أحرار ، استطاعوا القيام بواجبهم ، وما تلاهم بعـد ذلك من نواب جاء بهم « إسماعيل صدقى » إلى هذا المجلس ليكونوا مجرد نمر — كما سمتهم صحافة ذلك العهد — فيقول :

ما كان أفخم ذاك مظهر سؤدد   لو دام منـه سؤدد وفخار
غيظ العداة له وكادوا كيدهم   حتى علاك الوهن والإقفار
سدوا الطريق إليك أو بعثوا بمن   لا ترتضى مصر ولا تختار

وأخيرا يعلن رأيه ، فى وجوب عودة الحياة النيابية للبلاد ، وأنه لن يستقيم بناء هذه الأمة ، إلا على الأسس الديمقراطية السليمة ، وأول مظهر من مظاهرها ، وجود النواب الذين ينوبون عنها ويتحدثون باسمها ، فى صراحة وصدق وإخلاص ويرقبون مجريات الأمور فيها ، بعين ناقدة وعزيمة قادرة فيقول :

يادار أنت رجاء مصر وفى سوى   ناديك ليست تبلغ الأوطار
لن يستقيم لآل مصر بناؤهم   يوما وركنك بينهم ينهار
ما دام ربعك موحشا قفرا فلن   يلتام شمل أو يعز ذمار
يبقى بغيرك أمرهم فوضى . . به   يلهو اللئام ويعبث الأغرار

---

(١) قصيدة على دار النيابة العدد ١٠٥ من الرسالة الصادر فى ٨ يوليو ١٩٣٥ .

وتمر بعد ذلك أيام وأيام حتى تأتى مناسبة الاحتفال بذكرى وفاة الزعيم « سعد زغلول » فى أغسطس سنة ١٩٣٥ فيجد « فخرى أبو السعود » أن الفرصة سانحة لتذكير الناس بمطالبهم وشحذ هممهم وإثارة حماستهم .

ولقد كان لسيرة « سعد زغلول » فى ذلك العهد مكانة فى وجدان الجماهير لا تطاولها سيرة أخرى ، ومن هنا يمكن « لفخرى أبو السعود » أن يستغل هذه الناحية ، وأن يتوجه بالحديث إلى « سعد » فيكون لحديثه هذا صدى قوى فى أذهان الناس ، إذ يرتد إليهم مقرونا بأبرز الأسماء الملهمة الموحية وقتئذ بمعانى الكفاح والبطولة فيتم للشاعر بهذا ، التأثير الذى يريده . . .

ومن ثم نظم قصيدة فى هذه المناسبة بعنوان « ذكرى سعد » (١) أودعها ما دار فى ذهنه من خواطر أثارتها هذه الذكرى ، وعدد فيها بعض جرائم الذين اغتصبوا حقوق المواطنين باسم الحكم ، ومن هذه القصيدة قوله يخاطب به « سعد زغلول » :

استقبلت بك مصر سالف رفعة	وبدت لمأمول النهوض بشائر
فأتت ثمان بعد ذاك كأنها	دهر على الوادى المروع داهر
وتبدت بها الآمال فى إبانها	وتلت سناك على البلاد دياجر
سرقت زمام الحكم فيها عصبة	لا عاد عهدهم الأثيم الداثر
من كان قاع السجن مأوى مثلهم	عمرت محافل باسمهم ومنابر
أجروا على الأهلين ما لم يجره	فى سالف الأحقاب غاز فاجر
وتحكموا والأجنبى مظاهر	لهم وجند الأجنبى مناصر
أوهى وأوهن ما رأوه شرائع	عبثوا علانية بها و « دساتر »

* * *

(١) نشرت بالعدد ١١١ من الرسالة الصادرة فى ١٩ أغسطس ١٩٣٥ .

ولقد أعقب ذلك لون من ألوان التذمر ، سرى فى البلاد سريانا حثيثا ، وراح يتلمس الفرصة التى يستطيع أن يعبر فيها عن وجوده تعبيرا عنيفا ، وقد سنحت له هذه الفرصة على أثر خطبة ألقاها « السير صمويل هور » وزير الخارجية البريطانية أيامئذ فى قاعة الجولدهول بلندن يوم ٩ من نوفمبر سنة ١٩٣٥ صرح فيها بأن حكومته نصحت حكومة مصر بعدم العودة إلى دستور سنة ١٩٢٣ ولا إلى دستور سنة ١٩٣٠ ، واعتبرت الجماهير المصرية — ولها كل الحق فى ذلك — أن هذا التصريح يعتبر تدخلا وقحا من الإنجليز فى شئون مصر الداخلية ، ومن هنا انفجر هذا التذمر ، وتحول إلى ثورة شعبية سقط فيها بعض القتلى من المواطنين ، وخشى الملك « فؤاد » العاقبة وسارع حتى لا يتسع الخرق على الراقع ، فوافق على عودة دستور سنة ١٩٢٣ فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥ وأعقب ذلك استقالة وزارة « محمد توفيق نسيم » وتكوين وزارة ائتلافية برئاسة « على ماهر باشا » فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٦ ، ثم كان ما كان من تأليف « الجبهة الوطنية » برئاسة « مصطفى النحاس » زعيم حزب الوفد المصرى » التى انتهت إلى عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ التى يسماها مصطفى النحاس يومئذ « معاهدة الشرف والاستقلال » (١) وبذلك انتهت مرحلة من مراحل تاريخ مصر الحديثة .

- ١٠ -

لست أشك ، بعد هذا العرض السريع ، لهذه المرحلة من مراحل كفاحنا ، وبعد هذا التحليل الموجز أيضا لمدى تجاوب « فخرى أبو السعود » وعواطفه مع هذه المراحل وكيف كان فى شعره معبرا عن أحاسيسه ، أن القارئ قد ألم إلماما كافيا ، باتجاه فخرى السياسى وقدر فيه إيمانه بوطنه ، وإخلاصه له ، وتفانيه فى حبه . على أنى أعتقد كذلك أن الشاعر استفاد من فترة إقامته بانجلترا فى أثناء تلقيه لدراسته بصرف النظر عن العداء المستحكم بينه وبين الإنجليز — الأمر الذى يتضح جليا فى قصائده — إذ

(١) أجبر الشعب المصرى — فيما بعد — مصطفى النحاس نفسه أن يعلن الغاء هذه المعاهدة سنة ١٩٥٠ . بعد أن كشف الزمن زيفها وبانت على حقيقتها شروطها عاطلة .

عرف قيمة الحرية ، التى يعيش فيها الشعب الإنجليزى ، ومدى تمسكه بالديمقراطية المنبثقة منها ، فآمن الشعب بها إيمانا عميقا ، ومن ثم ود تطبيقها فى مصر تطبيقا يتسم بفهمه العميق لها ، وقد اتضح ذلك الإيمان ؛ وهذا الفهم ، فى مقال كتبه « فخرى أبو السعود » ونشرته مجلة الهلال ، بعددها الصادر أول يونيو سنة ١٩٤٠ (١) أى قبل وفاته ببضعة أشهر وقد جاء فى هذا المقال قوله :

« . . إن أول شروط الدولة الصالحة أن تدع للأفراد أوفر قسط ممكن من الحرية لأن الإنسان يعشقها بطبعه ، ولأن الحرية لازمة لنشاطه الفكرى ونجاحه المادى ، ثم إن حرية الفكر أو الاجتماع ، لازمة لاطراد رقى المجتمع ، وتوثيق العلاقة بين الشعب والحكومة ، لأن الحكومة التى تريد مخلصة ، خدمة مصالح الشعب ، وتحقيق رغباته ، لابد لها أن تعرف ما تلك المصالح والرغبات ، ولا سبيل إلى معرفتها ، إلا بالإصغاء إلى صوت الشعب ؛ ممثلا فى كلامه وخطاباته وكتبه وصحافته واجتماعاته ، ويمكن تقدير مدى إخلاص الحكومة فى خدمة شعبها بمقدار الحرية التى تتركها له فى نقدها ولن تقيد حرية الفكر فى دولة إلا أن تكون هناك مساوئ يراد حمايتها ؛ وامتيازات جائرة يخشى عليها من صوت العدل . . » .

ولم تكن نظرة « فخرى أبو السعود » إلى الحرية مجرد نظرة مثالية ، ولكنه كان يفهم قيمة الأسس الحقيقية التى يجب أن تقوم عليها هذه الحرية ، بحيث إذا فقدت هذه الأسس ؛ أو أجزاء منها ، كانت الحرية الناجمة عن هذا الفقد . . مجرد ألفاظ براقة لا تحتوى من الحرية على أى مضمون ، أو يكون المضمون فيها مساويا للأجزاء المستكملة من هذه الأسس الضرورية ، والحرية فى نظر « فخرى أبو السعود » يجب أن تقوم أولا ، وقبل كل شىء ، على قاعدة من العدالة الاجتماعية ، وإيضاحا لوجهة نظره هذه يقول فى مقاله السالف الذكر « . . لن تتوطد الحرية فى دولة حتى تتوطد معها المساواة ، لأنه إذا كانت هناك طبقة ممتازة على

---

(١) مقال المثل الأعلى للدولة الحديثة ص ٩٢٩ .

غيرها بامتلاك القوة والحق فى الحكم ، فإنها ستتوفر على مصالحها الخاصة وتعمل جهدها لغبن الطبقة المحرومة ، ومن ثم تجب المساواة بين جميع الطبقات سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، إن الطبقة المزوية عن الاشتراك فى التشريع والتنفيذ ، ستهمل مصالحها الاقتصادية والاجتماعية عند تنفيذها . إن الناس مختلفون ، ذكاء واقتداراً . . وهذا الاختلاف الطبيعى وحده هو الذى يجب أن يعين الفرق بينهم . . لا القوانين التعسفية التى تضعها الدولة التى تحابى بها طبقة أو طائفة أو جنسا أو أتباع مذهب معين . .

وقد أكد « فخرى أبو السعود » فى هذا المقال : « إن عدم المساواة فى شتى عصور التاريخ كان من أكبر أسباب الثورات » .

ولاشك فى أن أكثر هذه الأفكار ناضجة ، بل إن أفكاراً مماثلة مستقاة من الاحتياجات الحقيقية لشعبنا ، كانت فى تقدير رجال ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ولهذا بادروا بتنفيذها عند ما تمت لهم « أمنية هذا الشعب الكبرى » بالقضاء على الملكية الفاسدة ، والطغيان الإقطاعى والرأسمالى وفى هذه الأفكار أيضا دليل واضح ؛ على تقدمية هذا الشاعر ، فى اتجاهاته السياسية والاجتماعية ، فإذا قدرنا أن الشاعر لحقته منيته ، وهو فى الثلاثين من عمره ، أدركنا أن خيرا كثيرا ، كان من المتوقع أن يصدر عنه لوامتد به الأجل . غير أن لحظة من لحظات اليأس القاتلة ، كانت أقوى عليه من أملنا فى خيره الكثير .

- ١١ -

وقبل أن نختتم هذا الفصل الذى أفردناه عن الشعر الوطنى عند « فخرى أبو السعود » نحب أن ننتقل معه إلى أفق أوسع مدى ، بحيث تشمل نظرته الشعرية العالم أجمع وتمس جانبا من جوانب الإنسانية ، يهم البشرية بأسرها ، فقد اشتعلت الحرب العالمية الثانية ، كما نعلم ، فى أواخر سنة ١٩٣٩ باجتياح ألمانيا النازية لحدود بولندا ، واهتمت مصر بهذا الحادث ، لارتباطها مع انجلترا بمعاهدة ١٩٣٦ ، التى ينص أحد بنودها باستخدام انجلترا للأراضى المصرية فى حالة وقوع الحرب

أو احتمال وقوعها ، وكانت انجلترا قد أعلنت عن نفسها ، طرفا فى هذه الحرب التى قامت :

وأصدرت مجلة الهلال عددا خاصا عن الحرب فى نوفمبر سنة ١٩٣٩ ضم عددا من المقالات التى تدور حول هذا الموضوع ، وكان من بينها قصيدة « لفخرى أبو السعود » بعنوان « الحرب » ويتجه الشاعر فى هذه القصيدة إلى المقارنة بين الأمجاد الحربية التى تنسب فى العادة إلى القواد ، وبين المصائب التى تصيب الذين يتعرضون لويلاتها . . وبخاصة عندما تأكل نيرانها المدن الآمنة ، ويشمل أذاها الذين لاناقة لهم فيها ولا جمل ، ومن ثم يتحولون إلى فقيد ، أو مشوه ، أو ضائع لا يهتدى إلى مصير ، وقد جاء فى هذه القصيدة قوله ، والخطاب هنا موجه إلى الحرب :

لأجلك قدما مجد البيض والقنــا	وشهب من الجرد العتاق وجون
وغنت بأيام الغــزاة قصــائد	جياد على مر الدهــور عيون
وقامت لهم بين الحواضر إذ مضوا	تماثيل تحمى مجدهم وتصون
فهلا أقاموا للألى طحنتهمو	تماثيــل تحكى حالهم وتبين
لكل برىء ماجناها ولا بغى	وكان وقوداً حين شب أتون
ومن أخذت من وجهة النار والظبى	ومن بان منه ساعــد ويمين
ومن غاب راعيها ويتم طفلها	ومن ريع عنه صاحب وخدين
وربت أعياد من النصر تنطوى	مآتم فى أطوائها وشجون

- ١٢ -

وجاء العدد التالى من المجلة نفسها « الهلال » أى عدد ديسمبر ١٩٣٩ وهو يحمل قصيدة أخرى « لفخرى أبو السعود » يتحدث فيها عن عصبة الأمم « الأخت السابقة لهيئة الأمم المتحدة » فبين كيف انهارت الآمال التى كانت معقودة عليها وكيف أضحت بناية السلام ، مجرد أحجار صماء ، بينما

راحت الحرب تنعق فى كل مكان ، وذلك لأن الذين أقاموها ، لم يكونوا على إيمان وثيق بما يقيمون ، ومن هذه القصيدة نختار هذه الأبيات :

قيل «السلام» وشادوا الدار عالية ياليتهم إذ دعوا للسلم ما مانوا
ياليتهم نزعوا ما فى أكفهم ففى الأكف منيات وعدوان
ياليتهم نزعوا ما فى جوانحهم ففى الجوانح ثارات وأضغان
هذى أرائكها ساد السكون بها وفى منابرها صمت وإذعان
دار السلام مخـــلاة معطلة وللحديد يدور الحرب إرنان

- ١٣ -

هكذا كان شعور « فخرى أبو السعود » نحو الحرب التى قامت على ساقها فى أوربا ، ثم ما لبثت أن امتدت أطرافها فغطت ربوع المغرب والمشرق ، ما أتت فى طريقهـــا على شىء إلا جعلته هشيما ، حتى بات العالم كله فى أتون لايخبو أواره ، وضل السلام فلم يجد أمامه من سبيل ، لعدة سنوات مرت عجافا تبعث الموت فى كل مكان ..

ولقد كان الشاعر على حق فى هذا الشعور المرير ، نحو هذه الحرب التى ما زالت البشرية تعانى من آثارها إلى الآن ، والتى كان الشاعر نفسه من أوائل ضحاياها ، إذ كانت — كما طالعتنا قصة حياته — هى التى صنعت قمة مأساته ، التى لم يستطع أن يقوم بأداء دوره فيها ، بل ما لبث أن انهار أشلاء دامية فوق جدارها المنهار .

حــــوّاء والشاعـــر

الشعر الوجدانى « فخرى أبو السعود »

الأدب الذاتى الذى يتناول الإنسان من حيث كيانه الخاص ، وصلته المحدودة بالأقربين إليه ، وتأثره بما يتصل به مباشرة من أحداث ، ومشكلاته التى لا تهم أحدا سواه ، إلا بالقدر الذى يجد فيه غيره ، صورة من مشكلاته هو ، فيكون فى هذا مدعاة للتعاطف والمشاركة الوجدانية . . .

هذا الأدب أسبق فى ظهوره من الأدب الموضوعى الذى يتناول الظواهر العامة فى المجتمع الذى يعيش فيه الأديب ، أو الطبيعة التى تحيط به ، على أن يتعمقها فى عمله الفنى بحيث تستحوذ على القسم الأكبر منه ، إذ يبدأ الإنتاج الأدبى عادة فى صورة تعبير منمق ، يعبر به الإنسان عن خواطره العاجلة ، وأحاسيسه السانحة وتجاريبه الحاضرة ، ثم يرسل ذلك فى صورة أقوال سائرة أو أبيات شاردة ، على أنه من التعسف أن نفضل أحد اللونين ، الذاتى ، أو الموضوعى ، على الآخر ، وذلك أن للذاتى محاسنه ، وللموضوعى مزاياه . .

وقد استأثر حديثنا عن «حياة فخرى أبو السعود وشعره» الذى افتتحنا به هذا الكتاب بما نريد أن نتناوله عن عرض للشعر الوجدانى عند الشاعر فقد استشهدنا فى ذلك الحديث بنماذج من شعر الشاعر نعتقد أن فيه الكفاية ، وذلك فى أثناء عرضنا لمراحل تطور حالته النفسية التى أدت فى النهاية إلى مأساته ، ولكنى أضيف إلى هذا حديثا موجزا عن : « المرأة فى حياة فخرى أبو السعود وشعره » حتى يمكن الإلمام إلى حد ما بأغلب النواحى الوجدانية عنده . .

- ١ -

المرأة والشاعر

أعتقد أن الحياة الجادة التي أخذ فخرى أبو السعود نفسه بها في مطالع شبابه لم تتح له أن يستغرق في حب الأنثى ، ولا أن يتغزل في جمالها ، بالقدر الذي يتاح عادة للشبان أمثاله وإن كانت حصيلته من دراسة فنون الشعر قد أعطته محصولا نظريا لا بأس به من المفاهيم التي تدور حول هذا الموضوع . كذلك كان أثر دراساته للأدب الإنجليزي ، شعره ونثره ، عميقا في تكوين اتجاهه الشعري نحو المرأة ، فالرأي الذي نخرج به من مطالعاتنا لمقالاته النقدية يمكن تلخيصه — بالنسبة للمرأة — في أنه يعارض بكل ما يملك من قوة نظرة الشعراء الحسية إليها ، ويأخذ على الشعراء العرب القدماء اهتمامهم المفرط بعرض المفاتن الجسدية لها (١) ، وفي تحليله للجمال ، نرى أنه يساوي بين جمال الطبيعة والجمال الانساني ، من حيث النظرة العامة لهما ، ووجوب أن تكون النظرة إليهما نظرة افتتان لا اشتهاء ، « الجمال هو مادة الفن ، والتأثر به هو وحي الأديب . والتعبير عنه هو رسالة الأدب ، سيان جمال الطبيعة أو الجمال الإنساني ، وأصدق معيار لرقي الأدب وحيويته هو حسن تعبيره عن الفتنـــة بهذين الضربين . . » (٢) — وهو يحاول دائما أن يربط بين المرأة والسلوك الأخلاقي « للمرأة أثرها الخطير في المجتمع ، ولمنزلتها من الارتفاع أو الانحطاط أوثق الصلات بتقدم المجتمع أو بتأخره ، ولنظرة الرجل إليها ومعاملته إياها أبلغ الدلالة على سمو الأخلاق أو تدليها . . » (٣) . وهو

---

(١) راجع نقده هذا في عدد الرسالة ١ سبتمبر ١٩٣٦ أو بالمختارات النقدية .

(٢) الرسالة عدد ١٨ يناير ١٩٣٧ مقال عن النسيب .

(٣) مقاله عن أثر المرأة في الأدب الرسالة عدد ١٤ يونيو ١٩٣٧ .

ينظر إلى الغزل الإنجليزى بإعجاب لأنه « يمتاز بسمو العاطفة ، والترفع عن ذكر الشهوات ، والأوصاف الجسمية . . » (١) .

ولم يذكر — فيما قرأت له — أوصافا جدية للمرأة ، إلا مرة واحدة جاءت فى قصيدته « ذهب الشباب » (٢) وإن كان ما ذكره فيها لا يثير رغبة وإنما بالعكس ، يخلق نفورا فى نفس قارئه .

قد جف عودك والصبا ما زال فى ... أعطاف غيرك ناضرا يترقرق

ألوت بقدك بعد لين مهزه ... غير الزمـــان وما عليها موثق

رهلنه من حيث تجمـــل دقة ... وهزلنـــه حيث الجزالة أخلق

ومع ذلك فإن هذه الأبيات الثلاثة ، لا تنطوى على تشريح دقيق للجسد الأنثوى ، كالذى كان يصنعه الشعراء الهجاءون القدامى ، وليس فى الأمر أكثر من تلميح لترهل جزء ، وهزال جزء آخر من الجسد الأنثوى الذى أمامه ، على أننا لانستطيع أن نسمى « فخرى أبوالسعود » شاعرا غزليا نظرا لقلة النماذج التى قدمها لنا فى هذا المجال إنما نحاول — فى حدود إمكانياتنا — أن نتلمس مكان المرأة على اختلاف نظرته إليها فى شعره ، وسنجد أن لها فى مجموعة الشعر التى بين أيدينا ثلاث شخصيات سنتناولها بشىء من التحليل الموجز .

- ٢ -

وأولى هذه الشخصيات فى تقديرنا ، من حيث وجوب البدء بتناولها ، هى شخصية السيدة والدته ، باعتبار أنها المدرسة الأولى التى تربى الشاعر بين أحضانها ، وكان لها بلا شك أول تأثير مباشر على تكوينه السلوكى وهى — كما تبدو فى الصور التى قدمها لنا الشاعر فى رثائه لها (٣) — سيدة وقور مؤمنة تقية تؤدى الصلاة فى أوقاتها .

(١) الرسالة عدد ٧ سبتمبر ١٩٣٧ .

(٢) الرسالة عدد ٢٣ سبتمبر ١٩٣٥ .

(٣) نشرت القصيدة الدالية بعنوان ياليتنى بمجلة الرسالة الصادرة فى أول اغسطس ١٩٣٣ والهائية بعنوان نعى بالرسالة عدد أول نوفمبر ١٩٣٣ واللامية بعنوان ذكرى العام بالرسالة فى ١٥ نوفمبر ١٩٣٣ .

عبرت مواقيت الصلاة فلم تجد سعيا لها إصبحا ولا آصالا
ولكم نهضت لها الدجى قوامة تبغين رضوان الإله تعالى

وهى تصوم رمضان وتعد العدة للقائه ، وتبتهج بوروده ، لولا أن الموت تداركها .

ومضى الصيام فلم تحى وجهه سمحا ولم تستقبليه هـلالا
ولكم سعيت له وكنت حفية بأبى الشهور مهابة وجلالا

وهى شديدة الحدب على الشاعر :

أ ــ روح فقدت حنانها البر الذى لا يستظل بمثله أن يفقـد
ب ــ كنز من الود لم أقدر نفاسته حتى دهانى محتوم الردى فيه
أمسيت أبحث عن محض الوداد سدى وكان لى أمس أقصى ما أرجيه

وهو يؤكد فى هذه القصائد حبه لها ، وتعلقه بها :

أ ــ مضى الذى حطمت قلبي منيته ومن وددت بروحى لو أفديه
ب ــ ومن برغمى أنى قد حييت وقد حواه فى الأرض جافى الجنب نابيه
جـ ــ ما كان غير صميم ودك من هوى أخشى عليه الموت إن هو صالا

ولقد ماتت هذه الأم الرءوم فى أثناء إقامته بانجلترا ، فى فترة الدراسة ، ولذلك كان شعوره بالفراق أليما وقاسيا ، يمكن أن تحس أثره فى هذه الأبيات :

يا ليتنى قد كنت حاضر يومها وسعدت قبل رحيلها بتزود
وشهدت أنتها بلين مهدها ورأيت سكنتها بجافى المرقد
لما نضت أوصاب داء مسقم من بعد طول تصبر وتجلد
ورمت قيود معيشة ما عاشها فى الناس غير مقتل ومقيد
لولا حذارى أن يفجعها الأسى ويؤدها صرف الحمام المعتدى
ويزيدها شجنا على أشجانها لوددت لو عاشت وكنت أنا الردى

- ٣ -

ولنترك هذه السيدة الوقور فى مرقدها الأخير ، ولنمكث لحظات مع تلك السيدة الإنجليزية التى شاء لها القدر أن تعيش مع الشاعر بضعة أعوام والتى كان أثرها عميقا فى السنوات الأخيرة من حياته .

ونحن نعلم أنهما تعارفا فى أثناء زمالتهما فى كلية « اكستر » بمقاطعة « ديفونشير » بانجلترا ، إذ أنس إليها فى غربته ، لدماثة أخلاقها ، وبعدها عن عجرفة قومها ، وأنست إليه ، لجده واهتمامه بموضوع دراسته وانتهت صداقتهما هذه بالزواج . وعاد معها من انجلترا واستقرا معا بالإسكندرية وكان ثمرة زواجهما طفلا صغيرا شديد التعلق بأبيه ، وقد انتهت حياة هذا الطفل بأن طوته أمواج المحيط مع مجموعة من رفاقه الأطفال الإنجليز ، على أثر ضرب غواصة ألمانية للسفينة التى كانت تقلهم إلى كندا .

ونعرف كذلك أن هذه السيدة سافرت إلى انجلترا قبيل الحرب العالمية الثانية ولم يعد زوجها يسمع عنها بعد ذلك خبرا ، وأن هذين الحادثين أوهنا من صبره ، فلم تعد عزيمته تتحمل من أعباء الحياة فوق ما تحملت ، وانتهى به يأسه ، إلى مانعرف من نهايته المفجعة ؛ وقد عرفنا أن « فخرى أبو السعود » وزوجته الإنجليزية كانا مؤتلفين ائتلافاً عجيباً ؛ وأنها لم تكن تختلف معه فى شىء يراه ؛ ويمكن أن نستنتج من القصة التى حدثنا عنها الدكتور زكى نجيب محمود(١) أنها كانت بمثابة ظل له ؛ تتبع الوجهة التى يتجهها أيا كانت ؛ حتى إنه لما حرم على نفسه اللحم وافقته على رأيه وأصبحت نباتية معه ؛ ومعنى ذلك أنها كانت — فيما أعتقد — بلا شخصية يمكن أن تتفاعل معه على قدم المساواة ؛ مثبتة وجودها الفعلى ؛ ككائن حى له وجوده ؛ وأنها ليست ظلا باهتاً ؛ وأعتقد أن شعورها بتبعيتها المطلقة له كانت

(١) الدكتور زكى نجيب محمود فى مقاله عن فخرى أبو السعود بمجلة الثقافة عدد ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤٠ .

سبباً فى ملله من هذه الحياة الرتيبة التى يعيشها ، وأظن أنها كانت أحد المصادر التى لونت شعره خلال هـذه السنوات كلها بهذا اللون القاتم الكئيب ؛ وأعتقد كذلك أن هذا الشعور هو السبب الذى دفعه إلى أن يطلب من زوجته أن تبتعد عنه ؛ وأن تعود إليه ؛ حتى يحس فى هذا البعد والقرب بكيانها الذى ذاب فيه ؛ فلم يعد يشعر بوجودها ؛ ونحن نشير بذلك إلى قصيدته « البعاد » التى سبق لنا أن استشهدنا بأبيات منها(١) والتى نورد منها هنا بضعة أبيات أخرى ؛ تؤكد المعنى المقصود من هذه الإشارة :

لاأحب اللقاء عبداً مقيما　　مستمراً به نقضى السنينا

ما ألذ الهوى لقا ووداعا　　وكتاباً أدى التحايا أمينا

إن هذا البعاد يبعث بى الأشواق حرى　　ويستجيش الحنينا

وأحب الأيام عندى ماأرقب فيه　　لقـــاءك الميمـــونا

وتزيدين فى البعـــاد جمالا　　ورواء وبهجة وفتـــونا

وتزيدين فى الشمائل إيناسا　　وعطفاً كما أحب ولينـا

- ٤ -

وننتقل بعد ذلك إلى الشخصية النسائية الثالثة فى حياة « فخرى أبو السعود » فنرى أنها شخصية سيدة تكبره قليلا ؛ وأن وداً سابقا كان يربط بينهما ؛ وربما كان سفره إلى إنجلترا هو الذى حال بينهما ؛ وبين توثيق هذا الود ؛ ونحن نحاول التعرف على هذه الشخصية من خلال قصيدتين حفظتهما لنـا مجلة الرسالة ؛ تروى الأولى منهما قصة لقاء حدث فى سنة ١٩٣٥ ؛ ويبدو لنا « فخرى أبو السعود» من خلال قصيدته التى وصف بها هذا اللقاء والتى سماها « ذهب الشباب(٢) أنه كان جافا تغلب عليه صراحته ، وبتعبير آخر أنه لم يكن محبا لبقا ؛ فهو هنا يلتقى بها بعد فترة طويلة ؛ كان الزمن

(١) الرسالة ٤ اكتوبر ١٩٣٧ .

(٢) الرسالة ٢٣ سبتمبر ١٩٣٥ .

خلالها ؛ قد أغار على جمالها ؛ فنالت قسوته منه مانالت ؛ ثم تركها ليقول لنا « فخرى أبو السعود » فيها :

ذهب الشباب وغاض ذاك الرونق　　لم يبق إلا حسرة وتحرق
لم يبق إلا ذكر عهد زائل　　إذ أنت أملح من يحب ويعشق
حال الجمال فلا قوام مرهف　　يصبى النفوس ولا محيا مشرق
ما أنت إلا الروض صوح بعد إذ　　هو مثمر نضر الأزاهر مورق
ولقد يجاد الروض بعد جفافه　　ويجد من أبراده ما يخلق
وأرى جمالك ليس يبعث ميتة　　شمس تضىء ولا غمام يغدق
ولقد يدوق الزهر بعد ذبوله　　وتظل منـه ريحة تتنشق
ورأيت حسنك حين أدبر لم يذر　　إلا قذى يؤذى العيون ويوبق

ويعود فى هذه القصيدة إلى الماضى يوم أن كان يتودد إليها من يتودد، فلا يجد غير دلال الصبا ، وشموس الحسن ، فيتعرض لذلك فى شماتة وسخرية ويقول :

وتبدل الطبع المحبب ، لم يعد　　دل يشوق ، ولا شمائل تعشق
ومضى شماس ، كان فيك ، سجية　　واليوم ، فيك وداعة وترفق
واليوم فيك ، تلطف ومودة　　كم كان يخطبها المحب الشيق
سكنت نفوس كنت أنت هناءها　　ولعلك اليوم المعنى المقلق

ذلك هو الذى حدث فى سنة ١٩٣٥ فماذا كان بعد ذلك ؟ .

* * *

إن عامين مرا بعد هذا اللقاء ، كان لهما أعمق الأثر فى تكوين نظرة « فخرى أبو السعود » إلى هذه السيدة ، عندما التقى بها مرة أخرى ، ذلك لأن السأم من حياته الرتيبة ، كان قد تسرب إلى قلبه ، لقد جف النبع الذى رواه يوما ما ، وأصبح فى حاجة إلى نبع جديد .

وها هو ذا بعد عامين يلتقى بهذه الصديقة القديمة ، ولكنه كان قد تغير فى هذه المرة فهو يتلقاها بصدر رحب ، وبعاطفة يتعانق فيها الحزن والحب والشوق كذلك ، ويودع ذلك كله قصيدته « تليد من جمال » ، التى توشك أن تكون غزلا ساميا فيه جمال وروعة . وإنها ليتعانق فيها التودد والتدليل ، والذكريات الجميلة ، كل ذلك فى نسق من الشعر رصين ، فإذا لحظنا أنه نشرها بالرسالة يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٧ وأنه نشر قصيدته «البعاد» التى وجهها إلى زوجته الإنجليزية والتى تميزت بروح الملل فى الرسالة يوم ٤ أكتوبر سنة ١٩٣٧ أدركنا مدى التغيير الذى حدث له والذى من أثره كانت هذه القصيدة التى نوردها كلها هنا إذ أنها أقدر على التعبير ، فى هذا المجال . . يقول « فخرى أبوالسعود » فى قصيدته « تليد من جمال » :

رائع والله هـــذا الوجه حالى القسمات

معجب الحسن وسيم رغم صيف السنوات

رغم شيب قد تمشى فى المعـــانى والسمات

لم يزل حسنك رغم الشيب يسبى المهجات

يأسر اللب وينسى كل عذراء مهـــاة

غضة الجسم توافت كنضير الزهرات

غرة القلب لعوب خطرت كالنسمات

رائع حسنك من بين وجوه الغانيات

ووضىء يجذب الأعين دون الأخريات

رائع كالشفق الغارب يذكى اللهفات

ينبىء الناظر عن ماضى الحلى والحسنات

وتليد من جمال كان ممنوع اللذات

كان شغل العابديه وعناء العاذلات

لم يزل ينبىء عنه عذب تلك البسمات

وأرى أطيافه فى حسن تلك اللحظات

إن يكن قد ودع الطيش وسحر اللفتات

وغرير الضحكات وطروب الثرثرات

فقد اعتاض بحلم ووقار وأناة

وبأشتات التجاريب وجم الذكريات

قد جنى حلوا من العيش ومر الحادثات

فهو يسبى اليوم بالحسن ويسبى بالصفات

وأحاديث عذاب كشهى الثمرات (١)

- ٥ -

وثمة ملامح أخرى فى شعره تستشف منها تقديره للحسن الأنثوى ، ونتبين فيها بوضوح إعجابه ببعض مواكب الفتنة التى تشرق فى مجالى الإسكندرية وبخاصة فى مهرجانات الصيف التى تتألق على شاطئها البهيج .

ولقد تشعر أحيانا ، بنغمة حزن ، أو حرقة حرمان يختم بها بعض أغانيه المنظومة فى هذا الشأن ، والتى قد يكون مصدرها ذلك السأم الذى أشرنا إليه فيما سبق . .

على أننا بدلا من أن نستطرد فى تحليل تلك الظاهرة ، نرى أن نختم هذا الفصل بهذه الأبيات التى يتوجه الشاعر بالخطاب فيها إلى البحر ، ثم يفصح فيها عن ذات نفسه وما يعتمل فيها من أصداء وخواطر ، فقد

---

(١) مما يجدر بنا الاشارة اليه أن هذه القصيدة أيضا منظومة على نسق قصيدة لعبد الرحمن شكرى الذى كان وقتئذ ناظرا للمدرسة العباسية الثانوية وكان فخرى أبو السعود فى هذه الفترة مدرسا بهذه المدرسة ويقول شكرى فى مطلع قصيدته :

ياوضىء البسمات وحيى الوجنات

ليت لى مرك ائتلافا كائتلاف النغمات

أنت فى الدهر ابتسام كابتسام الزهرات .. الخ

يخرج القارىء منها بمضمون آخر غير ما كنا نهدف إليه .. فإن الذى لبديه هنا ، هو مجرد استقراء قد تخطىء فيه أو نصيب .

يقول « فخرى أبو السعود » فى قصيدته « الحول قد حال » وقد نشرها بالرسالة العدد ١٥٥ فى ٢٢ يونيو سنة ١٩٣٦ : والخطاب هنا موجه إلى البحر :

جمعت عندك آى الحسن قاطبة   وطبت يا بحر أسحارا وآصالا
إن كنت لم تجل حورا فيك عارية   كما روى شاعر قدما وماخالا
فكم على جانبيك اليوم من فتن   لم تحو أسطورة منهن أمثالا
غيد بلجك أو بالرمل سارحة   رفلن فى الحسن أعطافا وأوصالا
الطرف منهن مثر مسرف بذخ   والقلب يندب إعسارا وإقلالا
سبحان من أرسل الأحداق فى طلق   وحمل القلب فى الأضلاع أغلالا
يا من عرضتم فغادرتم جوانحنا   حرى ، وقد نال منها الشوق مانالا
بالرغم منى أن تمضوا على عجل   ولا يكون وداد بيننا طالا

الشاعر الوصّاف

الشاعر الوصاف

- ١ -

يقول الأستاذ « محمد عبد الغنى حسن » فى كتابه « أعلام من الشرق والغرب » عن زميله الشاعر « فخرى أبوالسعود »إنه كان رساماوصافا شاعرا (١) »،والأستاذ محمد عبد الغنى حسن فى هذا يمثل الكثيرين من الذين قرءوا قصائد « فخرى أبوالسعود » ثم انتهوا إلى هذا الرأى ، فقد كان الشاعر رساما مصورا فى وصفه حقا ، يخيل إليك إذا أنت قرأت قصيدة من شعره الوصفى ، أنك أمام صورة حية ، تحس وتشعر ، وتتحرك ؛ حتى ولو كانت هذه الصورة لجماد لايحس ، ولا يشعر ، ولا يتحرك .

قرأت مرة قصيدة له يصف فيها تمثالا لأعمى ، فلم أشك فى أنه يصف الأعمى نفسه وليس التمثال ، بل خيل إلى لدقة الوصف وعمق تأثيره فى نفس سامعه أنى أرى ذلك الأعمى وقد

بسط الكف وثنى بالقدم وابتغى السعى فأعيا فوجم
وانحنى معتمدا عكازة علها تهديه فى تلك الظلم
مرهفا أذنيه لو أسعدتا فاغرا فاه وهل يهديه فم
مجهدا عينيه من حملقة فى ظلام متِرام مدلهم
عبثا يمعن فى تلك الدجى وهو يدرى أنها لا تخترم
جهدت سيماؤه فى هديه وتغشتها تباريح الألم
لم يسر من خطوة فى أثرها خطوة إلا تأنى واستجم

---

(١) نشر دار الفكر العربى صفحة ١٣٤ وما بعدها .

عمره ليل طويل ماله كوكب يبدو ولا صبح يعم

ليس يدرى الصبح ألا خبرا قد رووه أو حديثا قد زعم (١)

فنحن هنا نشارك هذا الأعمى ، لا فى مظهره الخارجى فحسب ؛ وإنما فى أحاسيسه الداخلية أيضا ، ثم لا نملك فى نهاية المقطوعة ، إلا أن نعطف عليه ، وأن نقدر مأساته ، وفى رأيى أن الشاعر وفق فى نقل هذه الصورة النفسية والخلقية معا إلينا ، إلى حد كبير .

- ٢ -

ومع أن « فخرى أبوالسعود » يرى فى إحدى مقالاته النقدية ، أن خير الوصف ليس هو الذى يحيط بكل حقائق الموصوف ، ويحصى كل دقائق أجزائه ؛ كما تفعل الصورة الشمسية ؛ وإنما خيره ما أظهر المهم الرائع من أجزاء الصورة وأبان عن أثرها فى النفس (٢) إلا أننا نلحظ أنه فى أغلب قصائده الوصفية يميل إلى العرض الدقيق لأجزاء الصورة وإبراز أغلب هذه الأجزاء وإن لم يفته محاولة ترك الأثر النفسى لها عند الملتقى ، نلمح هذا على سبيل المثال فى قصيدة « السكك الحديدية تحت الأرض » (٣) التى تكون وصفا تفصيليا لمشهد من المشاهد التى رآها فى لندن ، وكانت غريبة عليه ومن ثم تركت انطباعاتها واضحة فى هذه القصيدة التى نختار منها هذه الأبيات :

جرت مفاوزها فى كل ناحية فلم تزل تتلاقى ثم تنشعب

ظلمات جون كأحجار الأراقم قد مدوا لها سببا فى إثره سبب

تجرى بها مركبات ما يزال لها تحت الثرى والدياجى مسلك عجب

سرى بها دافع الكهرباء فلم تقذف دخانا ولم يزفر بها لهب

---

(١) قصيدة تمثال الأعمى ص ٤٠ من الثقافة عدد ١٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ العدد ٢٧ .

(٢) الرسالة مقال نشر فى ٣ مايو ١٩٣٧ .

(٣) الرسالة فى ٢٩ يناير ١٩٣٤ العدد ٣٠ .

شتيمة الوجه إذ تنسل هاربة — مثل الثعابين فى أنيابها العطب
ترى على سفر طول المدى فإذا — حواتها صفرت سالت بها القضب
إن يبتغوا انطلقت أويبتغوا وقفت — لم تشك أينا ولم يعلق بها لغب
يرمى بها نفق داج إلى نفق — وينطوى سرب من بعده سرب
كأنما هى سعلاة بها كلب — أو أنها طالب قد شفه الطلب
تظل تقطع أنحاء المدينة لم — يشعر على الأرض من جاءوا ومن ذهبوا
وتنثنى فى الدياجى غير حافلة — بمن مشوا فى ركاب الشمس أو ركبوا

وكذلك صنع فى قصيدة « عطيل » التى صور فيها مشهدا من مشاهد الصراع النفسى عند « عطيل » حينما أخذت تعصف به الغيرة والشكوك التى أشعلتها نميمة « ياجو » ضد زوجه « ديدمونه » وقد أوردنا هذه القصيدة كاملة ضمن ملحق المختارات نظرا لتتابع الوقائع النفسية ولتلاحم أجزائها تلاحما يصعب معه بتر جزء من أجزائها .

- ٣ -

كذلك كان للطبيعة مجالها ، الممتدة مراميه فى شعر « فخرى أبو السعود » بل إن احتفاءه بها لايكاد يدانيه احتفاء آخر بذله الشاعر لأى لون من ألوان الشعر التى عالجها ، فإن الطبيعة عنده هى « إلف الشاعر الحميم وتوأم روحه ، ومرتع فكره ، ومتاع بصره ، ومهبط وحيه ، ومعاهد متعاته وذكرياته ، إلى ظلالها يسكن ، وبين محاسنها يهيم وعندها ينفض أوشاب العيش ، ويستريح فكره الذى أضناه التعب » (١) .

وهو ينعى فى المقال نفسه — على الشعراء العرب ، أنه قلما جاءت أوصاف محاسن الطبيعة مقصودة لذاتها مستقلة بنفسها فى قصائدهم ، وإنما تأتى فى الأغلب عرضا فى ثنايا القصيدة . .

وهو يرى ، أن أغلب شعر الطبيعة فى العربية — على قلته — تنقصه

---

(١) الرسالة مقال عن الطبيعة نشره فخرى فى ١٩ اكتوبر ١٩٣٦ .

حرارة الشغف بها ، وإدمان التأمل فى محاسنها ، ومحاولة النفاذ إلى معانيها ، وهو يعمد إلى المقارنة بين قول « أبى نواس » يصف بعض الزهر :

عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هى الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقول أبى تمام :

صبغ الذى لولا بدائع لطفه ... ماعاد أخضر بعد إذ هو أصفر

وبين قول الشاعر الإنجليزى « تنيسون » فى زهرة ضئيلة :

« أيتها الزهرة النامية بين شقوق الجدار

ها قد انتزعتك أناملى

وها أنت كلك محمولة فى كفى

بيد أنى لو استطعت استكناه سرك

لعرفت سر الله والإنسان جميعاً .. »

ويخرج « فخرى أبو السعود » من هذه المقارنة بأن فى موقف « أبى نواس » و « أبى تمام » سذاجة بالقول ، والتواء فى استرسال الفكر ، وهرب من مواصلة التأمل والوصف ، ذلك لأن الشاعر يرى أن قدرة الخالق جل وعلا أمر لا شك فيه ، وأن الموقف موقف استمتاع بالجمال ، وتصوير له وأنه ليس موقف وعظ وخشوع ، ولهذا فهو يرى أن فى موقف « تنيسون » مثالا للشاعر الذى يتأمل ويفكر ويتوق إلى المعرفة .

على أن الشاعر وهو يعرض أفكاره هذه لا يرمى اللغة العربية بالقصور بل يرى أنها « حافلة بالأسماء والأوصاف لشتى مظاهر الطبيعة وآثارها ، وحالاتها ، وأوقاتها ، غنية بكل مايحتاج إليه الأديب القدير ، لينقل على القرطاس أى المناظر الطبيعية شاء . . » وفى هذا العرض

لمدى اتساع لغتنا العربية ، وكفايتها يبرز لنا الشاعر مدى التفاوت الذى بين مقدرة اللغة العربية واستعدادها ، وبين تقصير أدبائها عن إدراك الغاية المنشودة .

- ٤ -

ونعلم من قراءتنا للفصل الذى كتبه الأستاذ « محمد عبد الغنى حسن » فى كتابه السالف الذكر عن الشاعر « فخرى أبو السعود » أنهما أقاما معا فى مقاطعة من أجمل مقاطعات « إنجلترا » اسمها « ديفونشير » وفى مدينة من أقدم مدنها اسمها « اكستر » على ضفتى نهر « اكس » القصير الجميل .

ونعلم كذلك ، أن للرحلة أثراً كبيراً فى إثراء الشاعر ، ومده بكثير من الصور التى يحتاج إليها فى إخصاب خياله ، وأن للشعور بالغربة أثراً حادا فى تعميق هذه الصور فى وجدانه ، وزيادة إحساسه بها .

ومن هنا نرى أن « فخرى أبو السعود » قد وفق إلى حد كبير فى نقل هذه المشاهد التى رآها فى الطبيعة الإنجليزية ، واستمتع بمباينتها للمناظر الطبيعية المصرية التى ألفها ، وترنى فى ظلالها ، وكان لهذه الرؤية العارضة — فى نفس الشاعر — انطباعها الذى لا يمكن أن تتركه المعايشة الدائمة للمنظر الثابت ، حتى وإن كان أكثر فتنة وأغنى جمالا .

ذلك ما نحسه ونحن نقرأ له قصيدته السحاب (١) مثلا والتى منها قوله فى هذا السحاب الإنجليزى :

تسعى جنود البرد تحت جناحه والريح والإعصار حول ركابه
حيث انتحى ، أرخى مسائح وجنة وتخلل الآفاق جـون حجابه
وأثار فى النفس القنوط وأشفقت من ثقل خطوته ومن ألبابه

(١) عدد ٥٦ من الرسالة فى ٣٠ يوليو ١٩٣٤ .

فإذا سرى برد القـــلال مخالطاً أجزاءه وانسل فى أعصابه
أوهى عـــراه وفت فى أوصاله فانصب ملء السهل فى تسكابه
فى كل قاب داكن أو غيضة غدقت غواديه وأفرغ ما به
وبكل قاع ممـــرع ويفاعة توقيع وكاف الندى صبابه
وبكل منحـــدر تدفق مشرع ينساب فى أذباده وحبابه
حتى إذا أفنى غزير شئونه همياً وأنفذ كل ما بوطابه
ولى وغادر بعـــده أسلابه تزهو بقاع الأرض فى اسلابه

وقد وفق الشاعر أيضاً فى هذه القصيدة ، باختياره للألفاظ الوعرة القاسية ، التى تشبه هى الأخرى وعورة الشتاء وقسوته فى تلك البلاد النائية ، ولقد يخيل لمن يقرأ هذه القصيدة ، من غير أن يعرف اسم صاحبها ، أنها لشاعر عربى زار البلاد الباردة فى عصر من عصور العربية المتقدمة نظراً لكلماتها المعجمية وطريقة تناولها .

- ٥ -

ومن القصائد التى اندمج فيها الشاعر بالطبيعة حتى أصبحت العلاقة بينهما واضحة بما فيها من تعاطف وود لا يحتاجان إلى شرح كثير ، قصيدته « ثمالة كأس »(١) التى قالها قبيل عودته ، وفيها يصف بكوره ليلتقى بالطبيعة فى صحوتها ويمتع عينيه بأبهج صورها ، ومنها :

. . وكم مشرق بادرته فى طلوعه وما زال ماء المزن فى الغصن يضرب
وقد غط أهلوها وأقبلت مثل من له عند قرص الشمس فى الأفق مأرب
ينقطنى غصن بمنهل قطـــره ويعبق من حولى نسيم ويلعب

حتى إذا أوشك أن يصل إلى نهاية القصيدة ، أحسست بتنهيدة عميقة حزينة يرسلها حرى دافئة ، فقد كاد الفراق يحين ، وآذنت

(١) الرسالة العدد ٥٨ فى ١٣ اغسطس ١٩٣٤ .

شمسه هناك بالمغيب ، ولم يبق فى الكأس إلا الثمالة فلا يملك إلا أن يهتف فيقول :

صحابى : هاتيك الشعاب : ألفننى ويعرفن خطوى حيثما رحت أدأب
لقد آذنت بالبين صحبتنا سوى ثمالة كأس عن قليل ستنضب
أباكرها صفواً ، وأعلم موقنا بأن ثمال الكأس أشهى وأطيب

وهناك قصائد أخرى عديدة(١) يضيق بنا المقام عن سردها جميعا ولكننا نكتفى منها بقصيدة « الخريف » وقصيدته «أهلنى الأرض اللتين أوردناهما كاملتين بالمختارات كدلالة واضحة على موهبته وبراعته فى هذا المجال .

- ٦ -

ولقد تابع الشاعر سيره فى هذا الطريق بعد عودته إلى وطنه وإقامته بمدينة الإسكندر الأكبر وهى مدينة مشهورة بأنها « عروس الماء » ومعنى هذا أن مناظرها الجميلة تكاد تنحصر فى وصف صلتها بالبحر وبمقدار ماأفادته من هذا المورد من جمال وإنه لمورد جد كريم . .

ولقد كان عمل الشاعر فى الفترة الأولى من إقامته بالمدرسة العباسية الثـــانوية(٢) ، وكانت أيامئذ تقع على ربوة عاليـــة تشرف على محرم بك ولا يكاد يعلو عليها بناء آخر فى ذلك العهد حتى شاطىء البحر ، ثم انتقل فى الفترة الثانية ، إلى مدرسة الرمل الثانوية وتقع فى منطقة هادئة ذات قصور وحدائق ، وقد اتخذ لنفسه فى الفترتين

---

(١) بعض هذه القصائد مترجم كقصـــيدته الطبيعية التى ترجمها نظما للشـــاعر « ورد زورث » .

(٢) مكانها الآن كلية العلوم . ومما يذكر أن الشاعر وهو يقوم بالتدريس فى هذه المدرسة تعهد بالرعاية والتوجيه بعض الطلاب الذين كانوا ينظمون الشعر يؤمئذ والذين أصبحوا فيما بعد من شعراء الاسكندرية المرموقين نذكر منهم الأستاذ محمد محمود زيتون الذى قدم فخرى أبو السعود ديوانه « جرس المدرسة » بكلمة مشجعة وكذلك الأستاذ ادوار حنا سعد الذى قدم له كذلك مجموعته القصصية الشـــعرية التى نشرها فى هذه الفترة .

دارا أنيقة ، ذات حديقة صغيرة جميلة فى حى الرمل قريبا من البحر الذى كان يتعشقه ، ولذلك اتخذ جارا مأنوسا ، يفزع إليه إن ألم به طائف من شجن ، ويناجيه بما تضيق به نفسه ، ويتعمق صوره ، ثم يسجلها شعرا تهفو إليه الأسماع . والقلوب .

يتأمله حاليا بالغيد من رواده فيقول :

حييت يا بحر إن الحول قد حالا ... فاستقبل اليوم أسرابا وأرسالا
تسعى إليك من البلدان ظامئة ... إلى الجمال على شطيك قد جالا (١)

ثم يتطرق إلى المناظر الطبيعية التى يسخو بها البحر على عشاقه بالإسكندرية فيقول :

ومزبد فيك أشهى للنواظر من ... حباب كأس علاق الكأس جريالا
وناعس الرمل قد مرت به حقب ... عداده ، وسيطوى بعد أجيالا
وهائج اللج يغزو الشط مجتهدا ... لا يأتلى عنــه إدبارا وإقبالا
دوما يحاول أمرا ليس يبلغه ... وما يزال لمــا يبغيه محتالا
إذا تكسر من صخر إلى حجر ... شهدت فى كل صوب منه شلالا (٢)

ثم يعود فيناجيه ، وهو بحيث لاتمرح الغيد على رماله ، وإنما هو على الرغم من ذلك ثرى أكبر الثراء ، بالبهجة الذهبية المتألقة فى أشعة الشمس عند شروقها ، غنى أوفر الغنى ، بالألوان الرائعة التى تضفيها عليه الشمس عند الغروب . . فيقول :

البحر فتان وإن هو لم ينــل ... ريا ولم يطلع جوارى عينا
كم طالعته الشمس ثم أجنها ... سرا وراء عبابه مكنونا
إنى شهدت الشمس عند شروقها ... من خلف لجته أشع جبينا
ورأيت مغربها به .. وضياؤها ... ملء الجوانح لهفة وحنينا

---

(١) قصيدة الحول قد حالا مجلة الرسالة ٢٢ يونيو ١٩٣٦ العدد ١٥٥ ص ١٠٢٤ .

(٢) قصيدة « جيرة محمودة » مجلة الرسالة العدد ٨١ فى ٢١ يناير ١٩٣٥ ص ١٠٦

يهوى خضيب شعاعها من أفقها ويذوب فى لجج به يزهـونا

ثم يعان عن جيرته لهذا البحر ، وعن صحبته معه ، وعن رضاه عن هذه الصحبة ، وتلك الجيرة ، وأنسه بها ، إذا ماأحس بالملل فيقول :

هاتيك آيات الجمال تخذتها صحبي ونعم مدى الزمان خدينا

وتخذت هذا البحر جارا لى إذا ما عفت جارا أو مللت قرينا

وحمدت جيرته وثورة لجه دوما تداول مسمعى رنينا

أضفى على الثغر الجميل رواءه وكسا حياة القاطنين فتونا

- ٧ -

الحق أن «فخرى أبو السعود» قد أوشك أن يبلغ درجة الكمال فى مجال الشعر الوصفى ولم يكن شعره فيه مجرد (هواية) يترضاها ويستجيب إليها ، وإنما كان ، بالنسبة إليه ، هدفا مقصودا لذاته ، يبذل فى سبيله كل طاقته ، بل إنه لا يرى نفسه أهلا للحياة إلا إذا أكمل رسالته الوصفية هذه .

ولنستمع إليه فى هذه الأبيات من قصيدته « الشعر »(١) فهى فيما أحسب تحمل إلينا الدليل ، أكبر الدليل :

فلا عشت إلا ناظرا متمليا أهذب شعرا يعرض الكون حاليا

يصور حسن الأفق بالشمس راويا ويرسم سحر البدر يغشى الدياجيا

وإقدام طود حفها الموج غاسلا وهامات هضب لفها الغيم كاسيا

ويحكى ائتلاف النور والظل والشذى ويحكى خفوق الغصن بالغيث ناديا

ويحكى خرير النهر يجرى مسلسلا وألحان طيربات فى الغصن شاديا

(١) القصيدة كاملة بالملحق .

الفصل الثالث

مختارات من شعر فخري أبو السّعود

من القصائد الوطنية التى بعث بها من انجلترا

- ١ -

يوم التل

كتب الأستاذ فخرى أبو السعود إلى الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة يقول :

« تحية طيبة وبعد فإنى مرسل إليكم قصيدة نظمتها لمناسبة ذكرى الاحتلال الإنجليزى ، والذى يصدر عدد الرسالة القادم ، فى مثل ابتدائه بالقاهرة — ١٥ — سبتمبر ، وقد اعتاد الكثيرون من المصريين الاستحياء لذكرى يوم التل الكبير ، لأن الهزيمة أصابتنـــا فيه ، والأسف لذكرى الثورة العرابية ، لأن الاحتلال الإنجليزى أعقبها حتى قال شوقى بك فى بعض ما قال :

ولو أن يوم التل يوم صالح   لحماسة لجعلته البادى

وقد نظمت قصيدتى قصد القضاء على توهم العار فى هذه الذكريات وإبراز مواضع الفخر فى تلك الحوادث والوقائع . . وأقل ما فى تلك الذكريات من مواضع الفخار ، أن الثورة كانت أول مظهر صحيح للقومية المصرية التى تنبهت فى العصر الحديث ، وأن موقعة التل كانت أول معركة قام فيها جيش مصرى صميم بالدفاع عن أرض مصر ، وأن المصريين فيها كانوا ينازلون أكبر قوة استعمارية عرفها التاريخ وأن الانجليز لم يطمئنوا إلى منازلة المصريين ، ولم يحرزوا عليهم النصر إلا بعد أن استعانوا بكل حيلة . . » ،

هذا وقد نشرت الرسالة القصيدة فى العدد السابع عشر الصادر يوم ١٥ سبتمبر ١٩٣٣ صفحة ٢٨ .

أعد ذكر ماضى النيل للجيل منشدا ... فما أعذب المجد الأثيل مرددا
وكم مفخــر للنيل باق مخلد ... إذا ذكر الأقوام فخرا مخلدا
نتيه بماضينا القديم تفاخرا ... وأحرى بأن يروى الحديث فيحمدا
ولم أر يوم التــل عارا وسبة ... ولم أره إلا أعز ممجــدا
أنخجل أن قمنا نذود عن الحمى ... ويسحب أذيال الفخار من اعتدى
تدفق من عبر المحيط مهددا ... فما حفلت آباؤنا من تهددا
وقالوا شباة السيف دون عدونا ... وإن يك عرض البر والبحر أيدا
إباء تليد المجد قر له رضى ... وقر له عظم الفراعين ملحدا
وما شهدوا من قبلها بعد عهدهم ... بنى مصر جمعا ينهدون إلى العدى
فلما رأى العادى سنوح فريسة ... أقام زمانا دونها مترصــدا
ترامت على الثغر الأمين رجومه ... تناصب عزلا فى المدينة قعدا
أثار عليهم مائج البحر مرغيا ... وصب عليهم مارج النار مرعدا
تهاوى له الأنقاض أيان يرتمى ... وتنتثر الأشلاء فى حيث سددا
تمازج لون النار والدم عندها ... وفار لهيب النار بالدم مزبدا
ولم يألها حتى كساها غلائلا ... من النار حمرا فى السموات مصعدا
ولم يثنه فى الشرق والغرب ضجة ... لأمر أقام الأرض هولا وأقعدا
متى نالها : فلتندب الأرض حسرة ... على العدل ، ولتبك السماء تلددا
رأت أمم فى الشرق والغرب أمة ... يجار عليها جهرة وتعمدا
تعاقب أن قامت تحطم قيدها ... وتبعث تاريخا قديما وسؤددا
وتوأد حرياتها وحقوقها ... ليحكم الاستعمار فيها معربدا
ولما أحال الثغر جحرا مخربا ... تقدم يبغى مستزادا ومهتدى
فأبصر من دون السبيل بواسلا ... جثيا على هام المسالك رقدا
تصدى إليهم كرة بعد كرة ... فأصلوه نيرانا فآب مبددا

فيا من رأى أبناء مصر إذا انبروا ... إلى غول الاستعمار صفا مجردا
على حين ماجت خيله وسفينه ... ولم يبصروا فى الشرق والغرب مسعدا
يساقونه كأس الحمام وأهله ... بمصر كرام فى مراح ومغتدى
فلما رأى وعر الطريق ولم يجد ... كما ظن نهجا حيث سار معبدا
تسلل من شرق البلاد محاذرا ... هزيمته فى الغرب أن تتجددا (١)
ومال إلى الأعراب والختل طبعهم ... يريد لدى القوم اللصوص مؤيدا
جرى تبره فيهم وسالت سفينه ... تمزق عهدا للقناة مؤكدا
وساق على الأحرار بالتل سفلة ... أتى بهم من كل فج وأعبدا
خميس يسير العار فى خطواته ... وتتبعه الأوباء فى حيثما اهتدى (٢)
كفته خيانات اللئام عدوه ... وما بث من جند الفساد وأرصدا
ولولا جنود الاثم تدفع دونه ... لما مد رجلا للقتال ولا يدا
كذلك كانت فى السياسة حاله ... وفى الحرب لم يبلغ به النيل مقصدا
وما نال إلا بالجريمة مغنما ... ولاسل إلا فى الظلام مهندا
وأقبل يزهو بانتصار وانه ... لخزى له يبقى على الدهر سرمدا
خصيمك اسنى فى الهزيمة صفحة ... وأكرم فى ظلم الحوادث محتدا
وزاد عروس الشرق فى تاج ملكه ... يتيه بها فخرا ويخطر سيدا
رويدك لا تحمد مقامك بيننا ... ولا تحسبنه ما أقمت ممهدا
كما جئت فى داج من النحس قاتم ... سترجع فى داج يغشيك أسودا
وأنحى على الأحرار يسكب مقته ... وقد كاد يسقيهم بجهلته الردى
ومن أحرق العذراء يوما تشفيا ... فليس بمستثن مسنا وأمردا (٣)

---

(١) هزم الانجليز سنة ١٨٠٧ من الغرب أى معركة رشيد ولهذا اراد ان يأتى هذه المرة من الشرق حتى يتفادى الهزيمة السابقة .

(٢) الخميس الجيش وقد أصيبت مصر بالكوليرا عقب دخول الجيش الانجليزى .

(٣) يريد بالعذراء جان دارك التى احرقها الانجليز .

فأرهق بعضا فى السجون مكبلا وفرق بعضا فى البـلاد مشردا
سـلام وريحـان أبوتنا على ثراكم سـلاما لا يزال مجددا
سلام على من قد تصلوا بنارها وخاضوا لظاها فائرا متوقـدا
سلام على من مات فى حومة الوغى ومن مات فى قاص من الأرض مبعدا
سلام على قيل (١) تولى زمامها أعف الورى قصدا وأنقاهم يدا
أصاب بها نجما فلما كبا بها وأدركه منهـا العثار تجلـدا
وزيد عن الأوطان عشرين حجة يبيت على شـوق إليها مسهدا
جريرته أن رام مصر عـزيزة وشاء لها أن تستقل وتسـعدا
ورام لها من طغمة الترك معتقا وبعدا لعهد الترك أشأم أنكدا
لتحيا كما تحيـا الشعوب طليقة بعصر يعاف العبـد فيه التقيدا
ستذكره مصر الفتيـة ما ابتغت لدى الحق عهدا أو لدى المجد موعدا
عسى ذكرنا رغم الهزيمة أحمدا سيبعث فينا للغنيمة .. أحمدا (٢)

---

(١) قيل مفرد اقيال ـ السيد القائد المطاع فى قومه ويقصد به احمد عرابى .

(٢) احمد الأول = احمد عرابى واحمد الثانى = الزعيم المنتظر وقد تمثل فى جمال عبد الناصر .

- ٢ -

بنى مصر

قصيدة وطنية نظمها ووهو مقيم بانجلترا وبعث بها الى مجلة الرسالة فنشرتها في العدد ٢٨ الصــادر في ١٥ ينــاير ســنة ١٩٣٤ صــحفة ١٠٤ .

إلام تغيب الشمس عنا وتطلع ... ونلعب فى ظل الحيــاة ونرتع

رضينا بخفض العيش والذل حوله ... وما الذل إلا حظ من بات يقنع

نهيم بهــزائل لا نهيم بغــيره ... ونهرب من جد الحيــاة ونفزع

ونحجم عن أخطارها وصــعابها ... وتنهبنا لذاتهــا والتمتع

نسير على رســل وللعصر حولنا ... مواكب فى طريق العلا تتدفع

أساغ بنو الشرق الحيــاة ذليلة ... وعيش بنى الغرب العلا والترفع

هم قادة الدنيــا ونحن وراءهم ... فضول وأذيال تجر وتتبــع

ندل ونستعــلى بمخترعاتهم ... ولا كاشف منا ولا ثم مبــدع

ونرفل فى أعطافها من حضارة ... وما نحن نبنيها ولا نحن نصنــع

وكم تائه منا بثوب منمق ... وأحرى به منــه الأديم المرقع

لهم حاضر عال وماض مؤثل ... وسعى إلى مستقبل المجد أروع

إذا ذكروا أوطانهم فخروا بها ... ويا حبــذا فخرا ذمار ممنع

يطولون بالجاه العزيز تفاخرا ... ونطرق من ذل الأسار ونخشع

ونشحذ من آبائنا وجــدودنا ... فخارا على أعقابهم ليس يخلع

هم دوننا أهل الفخار ولم يكن ... علو أب فى حطة الولد يشــفع

نتيــه بتاريخ لهم وم‌آثر ... قيــام على الأيام لا تتزعزع

وما هى ما لم نحى إلا صحائف بوال وأطلال خوال وأربع
وفيم تباهينا بعــز ورفعــة وحاضرنا قفر من العز بلقع
تبرأ ماضى المجد منه ولو درى لطاش له «خوفو» وأذهل «خفرع»
وريع الفراعين العظــام وأجفلوا وهالهم هــذا التراث المضيع
رأوا أمة تمشى وراء زمانهــا وقد عرفوها فى الطليعة تطلع
وتقنع من حظ الحيــاة بدونها وقد تركوها فى الذرا تتربع
وأوغل فيها الأجنبى نيوبه وقد عهدوها النجم أو هى أمنع
وهالهم خيــل بمصر ، وراية على راية النيــل المفداة ترفع
كأنى أصغى من علاهم إلى صدى يشق القرون الداجيات فيسمع
يقول : بنى مصر الحياة أو الردى وما لكم من دون هذين مشرع
وليست حيــاة الشعب إلا سيادة ترد طماع الطامعين وتردع
وليس الردى إلا حيــاة مهينة يقر بها الشعب الذليل المضعضع
أيرضخ شعب النيل للغير راضيا بما بات يأباه من الزنج أوكع
هلموا إلى جد الحياة ونفضوا بقية هذا النوم فالعمر مسرع
فما الأمر لو تدرون إلا عزيمة تصارع شدات الحياة فتصرع
تعاف ذلول العيش قد لان ملمسا وتضرب فى وعر الحياة وتقرع
وأنى سلكتم فاجعلوا مصر قبلة وحول علاها الملتقى والتجمع
شريكتكم فى سركم وجهاركم وحين تغيب الشمس عنكم وتطلع
وولوا على الأعمال لا القول همكم فما القول بالمجدى ولا الزعم ينفع
وإن فاتكم منها الجناة ففى غد ستزهر للجيل الجديد وتوشع

- ٣ -

حصن طارق

نشرها بالرسالة : العدد ٦٧ فى ١٥ اكتوبر ١٩٣٤ ص ١٧٠٨
نظمها عند مشـــــاهدته للجبل فى طريق عودته الى الوطن

أقام على شط الجزيرة مفردا ورانت عليه وحشة وسكون
على الصخرة الصماء يصخب دونه من اليم لج زاخر ومتون
مغب بجيش الشرق والغرب حوله صموت على كر العصور مبين
به صدفة عما يرى فى زمانه وفيه إلى ماض الزمان حنين
تغيرت الدنيا وباد قبيله وغيره دهر مضى وقرون
وقطب لما أنكر العصر حوله وسارت بما لايشتهيه شئون
وأنكر خيلا حوله وأعاجما تقرلهم تلك الربا وتدين
تعطل من بعد اعتصام ومنعة أسير بأيدى الغالبين رهين
وكان يصون القوم فارتد أعزلا وأصبح حتى النفس . ليس يصون
إذا لم تكن همات قوم حصونهم تداعت رواسى دونهم وحصون

* * *

حوت من تلاد المجد صخرة طارق على الدهر مالا يحتويه رقين
تعالت بهـــا الله أكبر مرة فمادت سهول دونها وحزون
وسالت شعاب بالصوارم والقنا وأحرق خلف الفاتحين سفين
وقامت بأطراف الجزيرة دولة وأزهر عرفان وأشرق دين
جلا أمس عنها آلهـــا وبنوهم على الضفة الأخرى الغداة قطين

فمن لى بمن ينبى الجدود بأننا　　وقد عز عبدان الجدود ، نهون
وأنا إذا أعتمنا رسوم علائهم　　تناهبت القلب الحسير شجون

* * *

خشعت وعادتنى لدى حصن طارق　　همـــومى وابتلت لديه جفـــون
لشعب يسيغ الذل من بعد ما سما　　له فى الورى ملك أشم مكين

من وصف الطبيعة فى انجلترا

- ٤ -

فى الخريف

احدى قصائده فى وصف الطبيعة الانجليزية نظمها وبعث بها الى مجلة الرسالة وهو مقيم باكستر ـ انجلترا ونشرتها الرسالة فى العدد ١٨ الصادر فى أول اكتوبر سنة ١٩٣٣

كل شيء فى الكون ران وقرا ... وسرى فى جوانح النفس سحرا

أسفر الجو وانجلت صفحة الأفق ... وفاحت مناكب الأرض بشرا

فى ربوع يطول عمر شتاها ... إذ يوافى ويقصر الزهر عمرا

نحمد الشمس يوم تطلع فيها ... بضياء ونحمد الله عشرا

رف فيها الخريف حسنا وطيبا ... فتسامى على الربيع وأزرى

نفضت يومها الحياة وقامت ... بعد طول الحجاب ترفع سترا

أبرزت من جمالها وحلاها ... كل سر فما تكتم سرا

ذهبت تنثر الجمال فلم تستثن ... فى الماء أو على الأرض شبرا

نثرته بلا نظام فأرضى الفن ... فوضى وأعجب العين نثرا

أودعت سحرها هواء وحصباء ... وماء يسرى وعشبا وصخرا

يسرح الطرف حيث شاء فما ... يسرح إلا من فتنة صوب أخرى

مزج حسن ورقة وبهاء ... ألفته لونا وضوءا وعطرا

هو فى العين ما أرق وأنداه ... وفى الصدر ما ألذ وأطرى

ترتوى الروح منه نهلا وعلاً ... فهى نشوى إذا تنقل ، سكرى

كست الأرض خضرة وتغشت ... ربوة ربوة وغورا فغورا

فزكا النبت فى قلاع وقيعان توالى فى الأفق طيبا ونشرا
راق منها ما قد تهادى على الأرض نديا وما تشامخ كبرا
وذكاء وسط الفضاء توارى خلف غيم يمر فى الجو مرا
ثم تبدو فتغمر الكون إيناسا إذا الغيم من سناها تفرى
فى سماء نقية تأخذ العين اغترافا وتفعم العين بشرا
معرض النور سرت فيه الهوينى مطلقا فى الخيال نفسى حيرى
تتملى بدائع الكون أو تنظم فى صفحة الخواطر شعرا
عند نهر عذب التسلسل ما تابعته بالمسير إلا اسبطرا
حفه العشب كاسيا ضفتيه مطلعا حوله قتادا وزهرا
أرسل العين تجتلى الحسن صفوا أو تقصى من سالف العمر ذكرا
فهى فى مسرح الطبيعة جذلى آنة أو مع التذكر عبرى
ورفيقى فى السير سفر بكفى لم أطالع مما يحدث سطرا
من تهادى سفر الطبيعة مبسوطا إليه فكيف يحفل سفرا ؟!

- ٥ -

أهذه الأرض

قالها وهو فى انجلترا يصف بوادر الربيع ونشرت بالرسالة بالعـــدد ٥٩ صـــفحة ١٣٨٤ فى ٢٠ اغســطس ١٩٣٤

من غازل الروض حتى افترّ جذلانا ... وكان منقبضا بالأمس غضبانا

ونضر الزرع فاخضرت لفائفه ... وانبث فى الأرض آكاما ووديانا

وأخرج الزهر من أقصى منابته ... فرصع العشب أشـــكالا وألوانا

وصاح بالريح حتى قر ثائرها ... إلا نسيما بعرف الزهـــر ملآنا

وكفكف الغيث فانجابت عوارضه ... وكان لا يأتلى هطـــلا وتهتانا

وقشع السحب عن أفق السما فبدا ... طلقا وأطلع وجه الشمس ضحيانا

ورد غائل برد كاد يهلـــكنا ... عات ، وأرسل دفئا منه أحيانا

أهذه الأرض مازالت كما عهدت ... أم بدلتهـــا جنود من سليمانا ؟

قد ظل ملتحفاً بالدجن محتجباً ... حسن الطبيعة طول العام وسنانا

حتى انجلى فبدا من طول لهفتنا ... إليه آخذ بالألباب عريانا

وللطبيعة حسن حيثما سفرت ... فى الشرق والغرب ساب أينما بانا

ليست أقل بأرض الثلج فتنته ... منها بواد يغذى النخل والبانا

وددت لما تمشى فى الجزيرة لو ... يتاح لى فى حماها الخلد أزمانا

علّى أعبُّ مليـــا من مناهله ... ويغتذى القلب من رياه ريانا

ذرعتها من جنوب الأرض مبتغياً ... شمالها ، ممعناً فى السير إمعاناً

والشمس ترمى شواظا من أشعتها ... آنا ويفـــتر عنى وقـــدها آنا

مقلقل الشخص تعلو بي غواربها حينا وتهبط بي الأغوار أحيانا
تبدو على الأفق الآطام ماثلة خلف المزارع أسرابا وأحدانا
وقد علت بينها الأهراج راسية طوت بموضعها دهراً وحدثانا
إذا هبطت قراها أو مدائنها رأيت خيراً وإثراء وعمرانا
ماجت بمن ركبوا فيها ومن درجوا كالنمل تعمر ألواذا وكثبانا
وإن أوبت لأحضان الطبيعة لم ألاق أحنى على الأبناء أحضانا
أهدت إلى وفودا من نسائمها تترى ، وظلا من الأغصان فينانا

- ٦ -

موقف من عطيل

(نظمت فى انجلترا)

عطيل ذلك القائد المغربى الأسود الذى استبد به الشك فى زوجته ديدمونه وقد ساعدت فى تنمية هذا الشك الدسائس التى قام بهـــا « باجو » حتى انتهى الصراع بأن قتل عطيل ديدمونه ؛ والقصة مسرحية من روائع شكسبير شاعر الانجليز الأكبر وقد تناول فخرى ابو السعود شريحة نفسية من عطيل بالتحليل الشعرى فكانت هذه القصيدة وهى هنا على لسان عطيل

قليل رقاد الليل نابى المضاجع ... أبيت على مض من الشك لاذع

ألا ليتنى لم أدر أنباء بغيهـــا ... ومنظر شيبات برأسى طوالع

وما سرها أنى بلونى معلم ... لدى الحرب بطاش بكل مقارع

ولا أوبتى بالغار فى كل موكب ... ولا خطرتى بين السيوف السواطع

فلم يثنها عهد . . وجن جنونها ... بغض الصبا من قومها الصفر يافع

سباها بطبع منه هين ، ومنظر ... طرير ، وخلاب من القول رائع

ولم يبق لى فى قلبها اليوم موضع ... وما كان فيه أمس إلا مواضعى

نعم هى تلقانى بنظرة مغرم ... وبسمة مفتون وعطفة خاشع

نعم وهى تسقينى خدوع رضابها ... كما مجت الأفعى الخؤون بناقع

وتوشك ــ لولا الرشد ــ أن تستخفنى ... ويستل حقدى سحرها من أضالعى

ويوشك ذاك الحسن أن يستهزنى ... فأنسى لديها كيدها وهو فاجعى

أتبسم لى غشا ! ومحض ودادها ... لدى قاهرى فى حبها ومنازعى ؟!

لعمرى ماذا يدعوانى إذا خلت إليه بمنأى عن رقيب وسامع

أتدعيننى فدما ؟ ، أتفضين للفتى بشجوى ولأوائى وجم مواجعى

أيضحك من جهلى ؟ أيزعم أننى بليد غليظ الحس غير مدافع

حنانيكما قد جرتما وغلوتما ورفقا بهذا المستغر المخادع

سيأتيكما أمرى فيدرى كلاكما بأن حمى الوحشى ليس بضائع

سأنقع ممن خانت العهد غلّى وهيهات ما غير الحمام بناقع

سأمنحها كأس المنية موقنا بأنى لتلك الكأس أول جارع

سأسلمها للموت أول نادم لتلك الحلى تقضى وتلك البدائع

سأقتل من لو أستطيع فديتها ببت نياطى أو بقطع الأخادع (١)

---

(١) العدد ٥١ من الرسالة السنة الثانية الصادر فى ١٩٣٤/٦/٢٥ صفحة ١٠٦٩ .

- ٧ -

الجندى القديم

ويصف بها جنديا بريطانيا يعيش على ماضيه العسكرى كان قد التقى به فى احدى الحدائق العامة ؛ وقد نشرها بالرسالة بالعدد ٣٧ فى ١٩ مارس سنة ١٩٣٤

لقد كان يوما شديد الأياد ... رشيق القوام نضير الصبا

يقضى مع الصحب ساع السرور ... وينهب والغيد صفو الهوى

وتحلو أحاديثه للرفاق ... إذا جمعتهم كئوس الطلى

فنبهه ذات يوم نداء ... إلى الحرب يدعو، فلبى النداء

ليحمى أوطانه فى الحماة ... ويدرأ كيد عدو طغى

ويقتحم الموت من أجلها ... ويلقى الحديد ويصلى اللظى

ويأخذ بين الصفوف مكان ... الألى طحنتهم تروس الرحى

فقاسى أذاها وأهوالها ... ودافع ماشاء أو لم يشا

وصادف فى كل يوم حماما ... وذاق من الخوف ألفى ردى

فإذا كادت الحرب أن تنجلى ... ويطّرح الجند ذاك العنا

وآن له أن يعود قريرا ... لأوطانه بعد طول النوى

أتيح له قاذف فرماه ... بمارج نار إليه هوى

فطاح بساق له بعدما ... تراءى قريبا بعيد المنى

وأى فؤاد وهى فأثار ... به الحسرات طوال المدى

ولم يدر ثمت من ذا رماه ... ولم يدر واتره من رمى

وما اجتمعا قبلها فى مكان ... ولا التقيا بعد ذاك اللقا

ولكنها محن ثم تهـــوى على خائضيها هـــوى القضا
وآب بســـاق إلى قومـــه وقد غيبت أختها فى الثرى
فقلده الحاكمون وساما وأثنوا عليه جزيل الثنـــا
وقالوا افتدى وطنا غاليا بعضو ثمين فنعم الفـــدا
وأجروا عليه الكفاف جزاء على ماسعى وعلى ماجنى
وعاد إلى داره مفـــردا يقضى الحيـــاة إلى المنتهى
بجانب موقـــده يصطلى بياض النهار وشطر الدجى
ذوى عوده وانحنى رأسه وجلـــل فوديه شيب بدا
وحيدا فبالصحب عنه اشتغال بروم الصفاء ونشد الغنى
يدخن مسترسلا فى الخيال ومستغرقا فى قديم الرؤى
ويذكر وسط دخان الطباق دخان الحروب ونار الوغى
وكيف ألمت به الغاشيات فخاض دجاها وكان الفتى
وكم كر بين صفوف العدو فأوقع فى القوم ثم انثنى
ويروى وقائعه الرائعـــات لأى أصـــاب وأى رأى
ويسردهن عليـــه مراراً وهيهات يسأم مما روى
ويسردهـــن على نفســـه إذا هو لم يلق سمعاً وعى
فإن راح يبغى الرياضة يوماً ويبعث بالسير ميت القوى
فصاحبه كلبه فى المسير وعكازاتاه بحيث مضى

- ٨ -

السجينة

قصيدة نشرت بالرسالة بالعدد رقم ١٢٢
الصادر فى ٩ ديسمبر ١٩٣٥ ص ١٩٨٨

لك الله كم ذا تطمحين وأعزف ... وأثنيك عما تبتغين وأصدف

ويانفس كم أزور عما أشتهيه ... وأعنى بما لاتشتهين وأكلف

وأحجم عما رمتنى فيه مقدماً ... وأقدم فيما تكرهين وأسرف

وأبدى سوى ماتضمرين مكتما ... جوى لك فى الجنبين لايتكشف

تجنين تهياما ووجداً ولهفة ... وأظهر أنى الزاهد المتعفف

وتخفين إشفاقا وأبدى جلادة ... وأغلظ يانفسى عليك وأعنف

كأنك فى الجنبين منى سجينة ... تعذب فى ظلماتها وتحيف

وتكبح عما تبتغيه وتشتهى ... وتقمع أشواق لها وتشوف

ظلمتك لم أظلم سواك من الورى ... وما من خلالى قسوة وتعجرف

ظلمتك: لا يانفس: بل تظلميننى ... وأصفح عما تسلفين وأصدف

أما كل يوم مذهب لك شائن ... أما كل حين مأرب لك ملحف

أما كل آن غاية إثر غاية ... أكلف فى إدراكها ماأكلف

وسيان محمود العواقب نافع ... لديك ومذموم المغبة متلف

وهل أنا مستطيع رضاك لو أننى ... على العالمين الحاكم المتصرف

ولو أننى عمرى أجاريك لم أعش ... عن النهج إلا حائدا أتعسف

كلانا أيا نفسى بلاء لخدنه ... نعم وكلانا ناقم ومعنف

نعيش كأنا اثنان لم يتعارفا ... وما لهما فى الدهر شمل يؤلف

ظلمتك خدنا صاحبا وظلمتنى ... فعل فراقا آتيا هو أنصف

- ٩ -

سل الجديدين

نشرت بالرسالة عدد ٩٩ صفحة ٨٦٩ فى ٢٧ مايو سنة ١٩٣٥ .

هذى الحياة التى راقت مجاليها يحصى حصاها ولا تحصى مآسيها
ما كنت تلهو بما أبدت ظواهرها لو كنت تنظر ماتخفى خوافيها
تظل تعرض .. ألوانا .. مفاتنها وللشرور مجـال فى نواحيها
تجاور الحسن فيها والأسى ، ومشت مابين أفراحها الكبرى مناعيها
يشقى ويفنى بنوها وهى لاهيـة بدلها وحلاها عن ذراريهـا

* * *

تروقك الغابة الفيحـاء ناضرة يرف بالحسن عاليها ودانيهـا
ويانع الزهر فى أفنانهـا عبق وريق المـاء يجرى فى مساريها
ويستبيك برود من نسائمهـا هين ، وظل ظليل من حواشيها
وبين أطوائهـا حـرب مخلدة تعج مابين ماضيها وآتيهـا
فى عشبها ، أو ثراها ، أو لفائفها يكن رائحهـا شراً لغاديهـا
وما اغتذى حبها إلا بهالكها ولاسما نضرها إلا بذاويهـا
تغلغل الظلم فى أحنائها ، وعدا على الضعيف من الأحياء عاديها
فى كل طرفة عين ثم مهلكة أو ثم معركة ياويل صاليهـا
تشـقى وتألم آلاف مؤلفـة فى كل آن وتردى فى دياجيها

* * *

وتعشق البحر فى رحب وفى عظم والبحر مطرد الأمواج طاميهـا
تلاعب الريح أحيانا غواربه وساكب النور أحيانا يناغيها

يصفو الأصيل عليها والضحى : ولها ... تردد وخرير فى شواطيهـا
وتحت أثباجهـا حرب مؤرثة ... موصولة ليس يخبو الدهر واريها
وكم مآسى فى قيعـانها درجت ... وكم فجائع غابت فى غواشيها

* * *

سل الجديدين كم كرا على مهج ... مروعة عز فى اللأواء آسيها
لو أطلق المرء للعين العنان على ... تلك المآسى لمـا جفت مآقيها
ولو رثى لضحاياها العداد لما ... حلا له الشعر إلا فى مراثيها
ولو تدبرت النفس الحياة لمـا ... صحت من الهم لكنـا نماريها
نشيحها عن مآسيها ونصرفها ... لمـا تحب وترضى من ملاهيها

- ١٠ -

سأجيء هذى الدار

وقد نشرتها الرسالة فى عددها رقم ١٥١
الصادر فى ٢٥ مايو سنة ١٩٣٦ ص ٨٦٩

البـدر فض غياهب الديجور وأذاب لجة بحره المسجور
أضفى على وادى المنية روعة من صوب ضوء سال كالبللور
فازدادت الأجداث فيه مهابة لما انجلت فى نوره المنثور
قرت : وقرت سامقات حولها عطلن من نسم وسجع طيور
فكأنها فى صيتهـا ومثولها أشـباح واد نازح مسحور
وأوى الظلام إلى خرائب منزل خلف القبور مهدم مهجور
مقو من الأحيـاء و لموتى فلا هو فى القبور يرى ولا فى الدور
وأتيت متئد الخطى . . متأنيا أنسل بين حفـائر وقبور
أجتاز فى وادى المنون مطهرا للنفس فيـه أيمـا تطهير
متذكراً فيه وكم من عبرة لمن ابتغى فيـه ومن تذكير
حيث الصعيد جماجم ومعاصم وحيـاة صباب وأعين حور
حيث انطوت سير خوال وانتهت أشغال أجيال وحرب عصور
وخبت معارك لم يكفكفها سوى حملات جيش للحمام مغير
وخبا ضرام محبـة وعداوة وهموم أفئدة وداء صـدور
أستخبر الأجداث عما استودعت من كل منخوب بها منخور
ماذا صنعن بفاتن ومنعم وجليل شيب جاءها وصغير

كم غيبت من كان مطمح مهجة ومناط آمال وعقـــد أمور
طوت الأليف فإذ بكاه إلفه ثنت برب المدمع المنثـور

* * *

سأجيء هذه الدار يوما لاحقاً من غادروا بالقلب برح سعير
ومخلفاً بعدى حزيناً موجعا يبكى بدمع للفراق غزير
يبكى وما عبراته فى أوبتى بالشافعات ولا الردى بعذير
وتقر فى تلك الغيابة أعظمى من بعد كد دائب مكرور
يسلو بها قلبى قديم مآربى كانت ويترع عن أسى وحبور
غفلان عن سال لذكرى جامد أو جائد بفـؤاده المفطور
ويطل ذاك البدر فوقى زاهيا يجلو سـناه غياهب الديجور

الموت

نشرت بمجلة الرسالة فى عددها رقم ١٢٢ الصادر
فى ٤ نوفمبر ١٩٣٥ ص ١٧٨٨

أيا قادماً تخشى النفوس قدومه ... لأنت صديق فى ثياب غريم
قدومك تحرير الأسارى ولو درت ... لما أنكرتك النفس يوم قدوم
كما ينكر الطفل الطبيب وعنده ... له برء أسقام ودمل كلوم
بلوت نفوس الخلق من عهد « آدم » ... فأنت بها يا موت جد عليم
إذا قست الدنيا على متعب بها ... بسطت له لأيا جناح رحيم
ومن شفه قيظ الحياة أغثته ... ببرد نسيم فى الأصيل رخيم
فأنت لنضو العيش من دون صحبة ... ومن دون قرباه أبر حميم
وأنت دواء الجسم قد خيل داءه ... تميط الأذى عن موجع وسقيم
وأنت بلاغ النفس حيرى مروعة ... بوادى شكوك جمة وهموم
وفيك ابتعاد عن جهالة جاهل ... وعن قول مأفون وفعل لئيم
وعندك نسيان وطول زهادة ... لكل مراد فى الحياة عقيم
فأنت – وإن غلت المنى – أطيب المنى ... وفيك نعيم المرء أى نعيم
لعمرك ما حى بأروح منزلا ... على الأرض من بال بها ورميم
ولو علم الجانى لما جاد عامدا ... على خصمه بالموت جود كريم
وتمحو يداك الحقد والخوف والأسى ... وكل بلاء فى النفوس قديم
وأنت تريح الفكر من كل معضل ... يظل له فى حيرة ووجوم
وتطوى عن الأجفان صفحة عالم ... ملىء بأنواع الشرور ذميم
وتطوى كتاب الأمس طيا وما مضى ... به من بغيض ذكره وأليم
عزاء لبعض الناس أنك قادم ... وأن شقاء العيش غير مقيم

- ١٢ -

الشعر

نشرت بمجلة الرسالة العدد ٢٢٣
فى ١١ اكتوبر سنة ١٩٣٧ ص ١٦٧

ألا يا صدى للنفس قد بات حاكيا تترجم عنهـا شجوها والأمانيا
تبوح بذكراها وتحكى شعورها وتروى رؤاها صادقا والمعانيا
وتكشف من أسرارها كل مبهم خبيرا بأغوار السريرة داريا
لأنت نديم النفس فى صبواتها وإن عن خطب كنت أنت المؤاسيا
لها منك فى الأشجان يا شعر مفزع تدافع عنها اليأس بالبشر ماحيا
وأنت قرين البأس والمجد والعلا وكم تلهم العليا وتوحى التساميا
وما أنت ألفاظ تصاغ لباقـة ولكن شعور النفس قد فاض طاميا
معين بنفس المرء يجرى ترقرقا إذا حسبته غيض جرجر داويا
أهاب به من حادث الدهر نازل فأقبـل دفاقا يلبى المناديا
وما كنت يوما ناظم الشعـر إنما غدوت له فى صفحة الكون تاليا
أقلب من ديوان ذا الكون صفحة تلى صفحة أتلوه للناس راويا
صحائف ما تبلى على الأرض جدة وكم بات تالوها عظاما بواليـا
صحائف حسن قد عبدت صفاته وصورت منه فى القصيد مجاليا
وأودعته آمال أمس وهمه وأيام حسن قد مضت ولياليا
إذا رحت أتلو ما خططت رأيتنى كأنى أحيـا ذلك العهد ثانيا
وما العيش إلا أن ترى فتنة الورى وتودعها من بعد ذاك القوافيا

فلا عشت إلا ناظــرا متمليــا أهذب شعرا يعرض الكون حاليا
يصور حسن الأفق بالشمس راويا ويرسم سحر البدر يغشى الدياجيا
وأقدام طود حفها الموج غاسلا وهامات هضب لفها الغيم كاسيا
ويحكى ائتلاف النور والظل والشذى ويحكى خفوق الغصن بالغيث ناديا
ويحكى خرير النهر يجرى مسلسلا وألحان طير بات فى الغصن شاديا
أمير الفنون : الشعر ، جمع شملها وأنزع منهن النفوس الصواديا
وفيه مجال للخيــال وملعب به الفكر يدنى كل ماكان نائيا
ويمضى مع الأحلام فى كل مذهب وترمى به شتى الطيوف المراميا
ويخلق منها عالما بعــد عالم مليئا بأســباب المسرات حاليا
ويدفعه حب البعيد فينثنى مع الريح يمضى أو إلى النجم راقيا
ويمعن فى ماضى الزمان مجولا ويسبر محجوباً من الغيب آتيا
ويجمع أطراف الحيــاة وتلتقى على ورده الأجيال شتى تواليا

- ١٣ -

الفتى المقرىء

ونشرت بالعـدد ٧١ من الثقافة فى
٧ مايو سـنة ١٩٤٠ صفحة ٣٥

لقد جارت لياليه عليه ... فأذهبت السنى من مقلتيـه
ولم تذهب سنى الآمال؛ يمسى ... يضىء شعاعهـا فى جانحيه
يهش إلى الحياة رضى كأن لم ... تعبس وجههـا فى ناظريه
إذا ماخف بشراً واغتباطا ... حسبت الكون طراً فى يديه
حسبت شوارد الآمال دانت ... له وغدت أوابدها لديه

لقد قست الظروف عليه ظلما ... وحرمت المحاسن باصريه
وألقت روحه رهنا بسجن ... تعانى وحشة فى جانبيـه
تعانى ظلمة وتطل شوقا ... على هذا الورى من محجريه
ففى حلقـومه ناى رخيم ... تخف النفس من طرب إليه
إذا مارجع الأنفاس فيـه ... وقد دارت يداه بعارضيه
سما باك صوته صعدا وألقى ... إليه الحفـل طرا مسمعيه
إذا زادوه مدحاً زاد زهواً ... وهز من التخايل منكبيه
ومال ترنحا يمنى ويسرى ... وصعـر فى التنعم أخدعيه
يرتل من كتاب الله ذكرا ... وعاه منذ شب بأصغريه
وعى آى الكتاب فليس تخفى ... عليه آية فى دفتيـه
حوى الفرقان ميراثاً نفيسا ... تلقف كنزه عن والديه
يرتله احتسابا واكتسابا ... ونعمت صنعة فى راحتيـه
ويؤمن بالذى يتلوه حقا ... وإن خفيت معانيـه عليه
ويؤمن أنه سيفوز يوما ... بنعمة ربه فى جنتيه

- ١٤ -

السفينة

(صورة من الميناء)

نشرت بالعدد ٣١ من الثقافة أول أغسطس ١٩٣٩ صفحة ٣٩ .

أتوها خفافا فاستقلت بهم مهلا   مفرقة شملا وجامعة شملا
يودعها بالشط حرى جوانح   وترقبها فى البعد أفئدة جذلى
فمن راحل بالشط غادر أهله   إلى راكب قديم الصحب والأهلا
ولما قضوا حق العناق وكفكفوا   غوارب دمع قد أزالوه فانهلا
وأرسل بالقبلات فى الجو مرسل   ولوح بالمنديل آخر مخضلا
تهادت بأهليها تشق طريقها   من اليم لم تنكل ولا استثقلت ثقلا
مخلفة ذيلا على الماء مزبدا   كما انساب ثعبان من الوكر فانسلا
وقد شق أجواز الفضاء صفيرها   كمعولة ثكلى وهى لا تعرف الثكلا
وما زال حتى غيب الثغر خلفها   وغال النوى من خلفها الشط والرملا
وحتى ترامى الأفق من كل جانب   يرد حسيرا ناظر المرء قد كلا
يمد نطاقا حولها متجددا   وهيهات تطويه وإن أمعنت عجلى
وإذ شمرت فى لجة الماء ساقها   كفتنا فلم ننقل إلى غاية رجلا
يروح الفتى فيها ويغدو وما درى   أأقبل فى طامى الأواذى أم ولى
يدبرها فى رأس جؤجؤها امرؤ   خبير بأوضاع الطريق فما ضلا
خفى كسر كامن فى فؤادها   يشارف أجواز العوالم من أعلى
إذا سايرتها الشمس تبسط ظلها   على اليم لم تترك بناحية ظلا

وإن صاحبت بدر الدجى وهو ساكب سناه، تهادت فى سنى البدر كالشملى
كذلك تطوى اليوم والليل بعده وما استبعدت شأوا ولا استعظمت حملا
إلى أن تراءى الثغر فى البعد باسطا ذراعيه فانقادت إلى حضنه مهلا
وما هى إلا أن رمت بجموعها إليه فغابوا فيه وانشعبوا سبلا
وقرت لـديه تستجم لمقبـل تجالد فيه الريح والموج والويلا
قضت دهرها فى رحلة إثر رحلة تحن إلى ظعن إذا آنست ظعنا

- ١٥ -

الجمجمة

وهذه آخر قصيدة بعث بها الشاعر الى مجلة الهلال وقد نشرت بعد وفاته فى عدد ديسمبر ١٩٤٠ صفحة ٨٩ .

شـــوهاء حائلة الألوان نكراء	أبلى محاسنهـــا دهر وآنـــاء
غشى معارفها من طول ما حملت	من الجنادل والأحقاب إعيـــاء
ناءت بعبء الثرى دهرا وناء بها	من قبـــل ذاك لهم العيش أعباء
جوفاء مصفرة من فطنة وحجى	جدباء خاوية الأركان ظلمـــاء
فى العيش زاهدة والخلق قاطبة	بها صدوف عن الدنيا وإغضاء
تخال شاخصة الطرفين رانيـــة	وعينها عن سنى الأضواء عشواء
خرساء ليست تحير القول ساهمة	لها مدى الدهر إنصات وإصغاء
إنى لأسمع منها وهى صامتة	وعظا من القول يدريه الألباء
نعم وأحسب أنى إذ أخاطبهـــا	تعى خفى خطابى وهى صماء
تتلو على النفس من سامى مواعظها	عجماء منخوبة الأنياب بكماء
قصت على تليدا من مآربها	آتى عليهن إصباح وإمساء
لعل ذا الرأس قدما كان يعمره	سامى ذكاء تنبى عنـــه سيماء
تحللت فى ثرى قبر عناصره	وأطفئت روعة منه ولألاء
وبعثرت فى الثرى عليا مطامحه	وكان من دونها بالأمس جوزاء
أو عل ذا الرأس فى ماضى بشاشته	تاهت به قامة فى الغيد هيفاء
كانت تروع النهى قدما معارفه	وتشتهى لفتـــة منه وإيماء

وكان هذا الفم الممقوت منظره تبدو به سمة للعين غراء
وكان ذا المحجر المشنوء تسكنه دعجاء مرسلة الأهداب حوراء
وكان غاثر هذا الأنف مزدهيا تعلوه أرنبة بالحسن شماء
يفر من قبحه ذعراً أحبته لو جاء ينظره اليوم الأحباء
لقد سلا وسلوا فى الترب وانشعبوا ولاذ بالصمت أحباب وأعداء
سلت شئون الورى فى الرمس جمجمة قد بات يسعفها وبل وأنداء
تخضر نامية من حولها ومن إذا تتابع وبل وهى صفراء
وليس يكرثها فى العيش مافجأت به البرية سراء وضراء
قد أسكت الموت أصداء الحياة بها وللرياح بها إن نُحْنَ أصداء

الفصل الرابع

الشاعر الناقد

فقرات من مقالاته في النقد والأدب تمثل وجهة نظره في الشعر والمجتمع

١ - رأيه فى الشعراء الماجنين من العرب القدامى

٢ - استبداد الملكية والحكام وأثره فى تعويق الشعر العربى

٣ - اختيار الكلمات والبحر فى الشعر وضرورته بالنسبة للموضوع

فقرات مختارة من آراء « فخرى أبو السعود » فى الأدب وصلته بالحياة الاجتماعية

- ١ -

فى مقال نشره بالعدد ١٦٧ من مجلة الرسالة الصادر فى ١٤ سبتمبر ١٩٣٦ صفحة ١٤٩ عن القول المكشوف فى الأدبين العربى والإنجليزى ، هاجم الكاتب بعض الشعراء العرب من أمثال عمر بن أبى ربيعة ، وبشار ، وأبى نواس ، وقال عن دواوينهم : « . . إن هى إلا استهتار بالقيم ، واستسلام للشهوات ، وتمدح بالمخازى » ثم قال عنها إنها « محكمة الديباجة . . بارعة النظم . . متنوعة الأوزان والقوافى ، تتخللها حكمة شاردة ، أو مثل سائر ، ليس للناظم فيه إلا فضل التأنق فى إعادة صوغه ، فإذا كان هؤلاء وأشباههم من فحول الأدب العربى . . فما أقصره عن بلوغ المثل الأعلى للأدب . . » .

ومدح الكاتب تأديب عمر بن الخطاب ، للحطيئة حين مس أعراض الناس ثم قال : « . . ولكن هذا العمل السامى الجليل ، تنوسى فى غمار السياسة وجرفه تيار التكالب على الملك والسلطة ، فلم يعد الخليفة أو الأمير يغضب ، إلا أن يناله الشاعر ببذاءته ، فبشار بن برد الذى ضج عليه القوم ودهماؤهم من فجوره وإقذاعه ظل معافى ولم يمس بسوء حتى تمادت به جسارته إلى عرض الخليفة ذاته ، أما مادام الشاعر ، متقيا غضب الحاكم أو مجتبيا رضاه فلا ضير عليه أن يرمى باللؤم أنصار الرسول أو يفضل إبليس على آدم أو يتهكم بيوم الحشر أو يتفاخر بشرب الخمر أو يتلهى بسب الرجال وقذف المحصنات ، أو يتباهى بالتسلل إلى الخدور فى غلس الظلام . . »

ويستطرد فى هذا الحديث إلى أن يقول :

« . . إن الحكومة الفردية المستبدة قد حالت دون قيام رأى عام يقف للخارجين على تقاليده بالمرصاد ، بل كثيرا ماحمت الشعراء الماجنين من غضبه . . »

- ٢ -

وفى مقال بعنوان « أثر نظام الحكم على الأدبين العربى والإنجليزى وقد نشره الكاتب فى العدد ١٧٩ من الرسالة الصادر فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٦ ، جاءت هذه الفقرات وهو هنا يتحدث عن ملوك العرب.. ص١٩٩٠ وما بعدها .

« . . ولم يكتف الملوك بكف الأدب عن نقد أعمالهم . بل اتخذوا رجاله أبواقا للتمدح بآثارهم ماصح منها وما بطل ، فكما اتخذوا من مرتزقة الجند أنصارا لهم على إخضاع الرعية ، اتخذوا من مرتزقة الشعراء أعوانا على تضليلها ، وقد هبط هذا الارتزاق بالأدب عن مكانته السامية درجات . . وحسبك أن يهبط الشاعر من قمة الفن والشعور والصدق ، إلى وهدة الشحاذة والتملق والكذب ، وهذه خلال تنزه عنها الأدب الإنجليزى فى أغلب عهوده ، لأن الشعب لم يمكن الملكية من ابتزاز ثمار اجتهاده وكده ؛ لتبعثرها فى مظاهر الأبهة الجوفاء ، وتنثرها على المرتزقة من الجند والشعراء وفى سبيل استرضاء الحكام واستدرار صلاتهم ؛ لم يحجم كثير من الشعراء ، عن امتهان الفن من جهة ، فأذلوا الشعر وملئوه بالأكاذيب وعن امتهان الخلق الكريم من جهة أخرى ، فمدحوا الظالم والقاتل مادام فى دست الحكم . . » .

ثم استطرد الكاتب فى وصف أعمال الحكام والشعراء حتى قال :

« . . وقد اتخذ الخلفاء ، والوزراء ، وسيلة لابتزاز أموال الرعية حتى إذا ماحان الحين . . فتكوا بهم واستصفوا أموالهم . . » .

وعاد بعد فقرات يقول :

« . . ولا ريب أن غيرة الملوك على سلطانهم المطلق ، كانت من أسباب الانصراف عن ترجمة تراث اليونان الأدبى والتاريخى ، كما ترجم تراثهم الفلسفى إلى العربية .. لأن هذا الأخير ، مشحون بالنظريات والقضايا الخيالية التى لاتتعرض لسلطانهم بسوء ، على حين أن تراث اليونان الأدبى حافل بمظاهر الديمقراطية وآثار اشتراك الشعب فى حكم نفسه ، فالملكية أكثر تسامحا مع العلماء وتشجيعاً للعلوم التى تدرس ظواهر الكون العامة منها إلى الآداب ، التى تترجم عن مشاعر النفوس ، ولا شك فى أن اطلاع الإنجليز على آداب الاغريق وتاريخهم كان من عوامل تشبثهم بحقوقهم . .

وهكذا كانت الملكية المستبدة من أسباب حرمان الأدب العربى من الأثر اليونانى الذى استفاد منه غيرهم .. » .

- ٣ -

ومن مقال له بعنوان « التصوير فى الشعر العربى » بالعدد ٤٤ من الرسالة الصادر فى ٧ مايو سنة ١٩٣٤ تناول فيه الأوزان العربية وضرورة حسن اختيار الشاعر للبحر والكلمات المناسبة لموضوع قصيدته :

« .. ونرى البحر الطويل يؤدى الغرض ويرسم صورة رائعة فى قول « جميل » (بثينة)

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

فهنا حركة الإبل البطيئة واضحة ماثلة ، وقد كان (جميل) ملهما

حيث ذكر كلمة أعناق فى البيت الثانى ، فإنها وحدها ترسم الصورة التى أراد ، فإن ذكر الجزء الأهم من الصورة كثيراً ما يبعث إلى المخيلة بباقى الأجزاء ويبرز الصورة جلية كاملة .

ويترك البحر الطويل مثل هذا الأثر أيضاً فى قول البارودى الذى أشار إليه الدكتور صبرى فى كتابه عن الشاعر (ونبهنا وقع الندى فى خميلة) فإذا قرئ هذا الشطر بتأن وجدنا الوزن يمثل تساقط قطرات الندى متتابعة ، أما الحركة السريعة فيمثلها البحر الكامل ، ومن ذلك قول المتنبى :

أقبلت تبسم والجياد عوابس يخببن بالحلق المضاعف والقنا
عقدت سنابكها عليها عثـيرا لو تبتغى عنقا عليه لأمكنا

فى البيت الثانى نرى مبالغة أخرى من مبالغات المتنبى ، وهى وحدها لا تكاد تؤدى معنى ، لكن البحر الذى صيغت فيه القصيدة يؤدى خبب الجياد خير أداء ، حتى ليكاد يريك توثب الفرسان فوق ظهورها ، ولوحاول الشاعر وصف الخبب فى البحر الطويل لما استقامت صورته ، ولتكرار الألفاظ أو التعبيرات أحيانا أثر بليغ فى إبراز الصور وبعث الأخيلة ، فى قول ابن هانئ الأندلسى :

وصواهل لا الهضب يوم مغارها هضب ولا الوعر الحزون حزون

يوحى تكرار كلمتى : هضب وحزون إلى المخيلة تتابع الهضاب والربا فى أثناء عدو الفرس فكأنه يعرض أمام العين شريطا سينمائيا متحركا ، أضف إلى ذلك صوغ البيت فى البحر الكامل ، واختيار الكلمات الفخمة .

وفى قول الأستاذ المازنى :

لغط اليم إذا اليم طما والتقت فيه هضاب بهضاب

نرى صورة رائعة لجيشان اليم ولا يرجع هذا إلى معنى البيت وحده ولكن إلى وزنه وألفاظه كذلك ، فبحر الرمل يمثل الحركة

المتضاربة أدق تمثيل ، وتكرار كلمتى اليم وهضاب يوحى إلى المخيلة تتابع اللجج ، وتكرار حرف الهاء ثلاث مرات فى الشطر الثانى يزيد الحركة تصويرا وبروزا . .

و« فخرى » فى هذا المقال يوجه نقده المر للذين اتجهوا إلى اللفظ فحسب ووجهوا إليه عنايتهم المطلقة فيقول عنهم إنهم « ولعوا بالألاعيب التى سموها محسنات ، وأوغلوا فى هذه الغثاثات على أجل فنون الشعر خطرا كالرثاء والنسيب فأسفت وانعدم فيها الحس والشعور فرأينا شاعراً ينسب فيقول :

ناظراه فيماجنى ناظراه أو دعانى أمت بما أودعانى

وآخر يتوجع فيقول :

لى مهجة فى النازعات وعبرة فى المرسلات وفكرة فى هل أتى

وثالث يمدح فيقول :

وإن أقر على رق أنامله أقر بالرق كتاب الأنام له .. »

ثم يدافع فى المقال نفسه عن اللغة العربية وطواعيتها فيقول ،
« . . وليس فى طبيعة اللغة العربية قصور يحول بينها وبين مجاراة اللغات الأخرى فى هذا الباب بل لها من الميزات مايقدمها على غيرها ، فهى كثيرة البحور التى يؤدى كل منها غرضا مختلفا ، غزيرة الألفاظ الوعرة الضخمة والرقيقة اللطيفة ، التى توحى بخشونتها أو برقتها مختلف الصفات ، غنية بالحروف السلسة اللينة والحروف الخشنة الجافية التى تطاوع الناظم القدير .

ليس يعوز العربية شىء من ذلك وإنما يعوزها الجرأة من الناظمين بها والعزم والجلد . . » ويتابع مقالاته فى الموضوع فيكتب فى العدد ٤٩ من الرسالة الصادر فى ١١ يونيو ٣٤ ص ١٩٦٨ :

« . . . إن العرب اتصلوا بالثقافة اليونانية في غير الوقت الملائم ، في وقت متأخر كان أدبهم فيه ، قد نضج وقوى وصار له من الاعتداد بنفسه مايثنيه عن التتلمذ لغيره ، أما الآداب الغربية فعرفت تلك الثقافة في عهد طفولتها ونشأتها وهي لما تزل عاجزة ، وتتلهف إلى المعرفة حيث وجدتها ، فلم تتردد في الانتفاع بتراث اليونان إلى أبعد حد فأثرت بما أخذت عن اليونان من المواضيع والأشكال الأدبية ، وبذلك وجدت في تاريخ اليونان وأدبهم وأساطيرهم وفنونهم من صور وتماثيل وآثار ، منادح للكتابة والدرس والنظم ، ومنابع للوعي لاتنضب . » .

حياة فخرى ابو السعود فى سطور

— ولد فخرى أبوالسعود سنة ١٩١٠ وعاش بالقاهرة فى عائلة ريفية أصلها من بنها .

— تعشق الأدب العربى صغيرا حتى حفظ ديوان البارودى ومختاراته ، ووعى كثيراً من الشعر القديم : الجاهلى والإسلامى وظهر أثر ذلك فى كتاباته النقدية فيما بعد .

— وبعد أن أتم تعليمه الثانوى التحق بمدرسة المعلمين العليا حيث تخرج فيها سنة ١٩٣١ .

— اشتغل أياما بالصحافة ثم مدرسا بالتعليم الحر .

— نجح فى امتحان أقامته وزارة المعارف لاختيار أحسن العناصر التى تصلح لتدريس اللغة الإنجليزية وإيفادها إلى انجلترا فى بعثة دراسية .

— سافر هو وزميله الأستاذ محمد عبد الغنى حسن إلى انجلترا سنة ١٩٣٢ حيث التحقا بكلية مدينة اكستر فى مقاطعة ديفونشير وهناك ترجم رواية : (تس . سليلة آل دربرفيل) وبعث من هناك بعديد من قصائده إلى « الرسالة » لنشرها ، ويتميز أغلبها بالطابع الوطنى الملتهب ، وقد اخترنا بعضها فى ملحق هذا البحث .

— تزوج من زميلة إنجليزية كانت تدرس معه فى الكلية وأنجب منها طفلا وحيدا .

— عاد من انجلترا فى أكتوبر من سنة ١٩٣٤ حيث عين مدرسا للغة الإنجليزية بمدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية وظل بها حتى سنة ١٩٣٨ ، وقد نشر فى هذه الفترة أكثر إنتاجه الشعرى والنقدى فى مجلة الرسالة ، كما أصدر كتابه عن الثورة العرابية .

– انتقل إلى مدرسة الرمل الثانوية بالإسكندرية وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين الأستاذ أحمد حسن الزيات رئيس تحرير الرسالة ، فانتقل بنشاطه الأدبي والشعري إلى مجلات الثقافة والمقتطف والهلال وإلى صحيفة الأهرام وقد ألف في هذه الفترة كتابين الأول : عن « الخلافة والسياسة » والثاني دراسة «عن محمود سامي البارودي» وتقدم بهما إلى وزارة المعارف في مسابقة كانت الوزارة قد أعلنت عنها بين المدرسين وفاز فيها « فخري أبوالسعود » بجائزتين رئيسيتين ، وقد تسلم جائزتين ماليتين مع من فازوا في حفل أقامته الوزارة بدار الأوبرا في أكتوبر من سنة ١٩٣٩ ، وأعلنت الوزارة عن اعتزامها طبع الكتابين ولكنهما ظلا في أدراجها إلى الآن .

– سافرت زوجته وابنها لزيارة أهلها بانجلترا في أواخر سنة ١٩٣٩ ولكن قيام الحرب العالمية الثانية حالت دون عودتهما .

– مات ابنه في حادث غرق سفينة الأطفال الإنجليزية الذاهبة إلى كندا وانقطعت أخبار زوجته .

– أطلق النار على رأسه من مسدسه بحديقة داره صبيحة ٢١ أكتوبر ١٩٤٠ وقد نشر ذلك في الرسالة والثقافة وبعض الصحف اليومية والمجلات الصادرة في ذلك العهد .

– قالت أسرته في نعيه الذي نشرته بالأهرام صبيحة ٢٢ أكتوبر ١٩٤٠ إنه مات قضاء وقدرا برصاصة طائشة انطلقت من مسدسه في أثناء محاولته إصلاحه .

– ترك مجموعة طيبة من المقالات النقدية الممتازة كان الأستاذ أحمد حسن الزيات أعلن أنه سيجمعها في كتاب ولكنها ظلت إلى الآن مطوية ضمن مجلدات الرسالة المحفوظة .

– ترك مجموعة كبيرة من القصائد منشورة في الرسالة والثقافة والهلال والمقتطف والأهرام تكفي لديوان كبير ولكنه لم يجد السبيل إلى النشر وأرجو أن أوفق لجمعه وتحقيقه إن شاء الله .

المراجع

١ ــ ذكرياتى ومشاهداتى الشخصية .

٢ ــ روايات بعض المعاصرين من زملاء العمل أو الجيرة .

٣ ــ مقال الدكتور زكى نجيب محمود نشره بمجلة الثقافة العدد ٩٦ الصادر فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤٠ .

٤ ــ مقال للأستاذ أحمد فتحى مرسى ، نشره بمجلة الرسالة العدد ٣٨٣ الصادر فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٤٠ .

٥ ــ مقال للأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، نشره بمجلة الثقافة العدد ٩٨ الصادر فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٤٠ . ثم ضمنه كتابه « أعلام من الشرق والغرب » الذى نشرته دار الفكر العربى سنة ١٩٥٠ .

٦ ــ مقال فى كتاب « تماثيل مكسورة » ضمن سلسلة اقرأ للأستاذ رجاء النقاش .

٧ ــ مجلدات الرسالة منذ صدورها حتى سنة ١٩٣٧ ، وسنة ١٩٤٠ فيما يختص بمقالات زملائه عنه أو رثاء المجلة له .

٨ ــ مجلة الثقافة سنة ١٩٣٩ ، سنة ١٩٤٠

٩ ــ مجلات الهلال والمقتطف وصحيفة الأهرام وقد أشرنا إلى تواريخ صدور المجلات التى رجعنا إليها فى هوامش البحث .

الحوادث التاريخية

١ – ذكرياتى ومشاهداتى الشخصية .

٢ – بالنسبة للوثائق والنصوص المحددة والأرقام وتحديد التواريخ ، رجعت إلى الجزء الثانى من كتاب : « فى أعقاب الثورة المصرية » للأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

المحتوى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٣/٤٦٧٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ٤٠ قرشا